

# سُورَةُ التَّحْرِيمِ

## مِنْ مَرْضَاةِ الْبَشَرِ إِلَى وِلَايَةِ اللَّهِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

## سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مِنْ مَرْضَاةِ الْبَشَرِ إِلَى وَلَايَةِ اللَّهِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

## المقدمة

من مرضاة البشر إلى ولاية الله

ليست سورة التحريم من السور التي تقف بعيداً عن الإنسان لتحديثه عن حقائق مجردة، بل تكاد تدخل عليه من أقرب أبوابه، من البيت الذي يسكنه، ومن القلب الذي يخفيه، ومن العلاقة التي يظن أنها شأن خاص لا يتجاوز الجدران، ثم لا تلبث أن تأخذ بيده من هذه المساحة الحميمة الصغيرة إلى أوسع قضايا المصير: إلى الحلال والحرام، وإلى ولاية الله، وإلى التوبة، وإلى النار، وإلى النور، وإلى الجنة، وإلى ذلك السؤال الأعظم الذي لا يستطيع الإنسان أن يهرب منه مهما ازدحم حوله الناس: لمن يكون قلبك في النهاية؟ إن أول ما يلفت في هذه السورة أن الوحي لا يرى البيت هامشاً من هوامش الإيمان، ولا يعد المشاعر مساحة لا يدخلها التكليف، ولا يترك العلاقات الإنسانية تسير وحدها بمنطق الرضا والغضب والغيرة والقرب والعتب، وإنما ينزل عليها ميزاناً من السماء، لا ليجردها من دفئها الإنساني، بل لينع ذلك الدفء نفسه من أن يتحول إلى سلطان ينافي الله موضعه في القلب.

من هنا كانت البداية مذهشة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾؛ فالسورة لا تبدأ من سؤال: ماذا فعل العدو؟ ولا: كيف يواجه المؤمن الخارج؟ وإنما: ماذا يحدث في الداخل حين يصبح رضا من نحب مؤثراً في اختياراتنا إلى الحد الذي يحتاج معه القلب إلى إعادة ضبط؟ وهذه البداية تكشف أن أعظم المعارك الإيمانية قد لا تكون صاخبة، بل تجري في صمت بين إرادتين داخل الإنسان: إرادة أن يرضي الناس، وإرادة أن يظل ميزان الله أعلى من كل مرضاة. وليس في هذا إلغاء للمودة ولا إهدار لحق الأزواج ولا دعوة إلى الجفاء؛ وإنما هو تأسيس للحد الفاصل بين الحب والعبودية، وبين الإحسان والتنازل عن المرجعية، وبين مراعاة القلب البشري وتسليم القيادة له.

ثم تفتح السورة وراء هذه المسألة باباً آخر أشد دقة: باب السر. حديث يسر، ثم ينتقل، ثم يظهره الله، ثم تأتي الأخلاق النبوية في معالجته: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، فيتحول المشهد من مجرد واقعة بيتية إلى درس بالغ الرقي في معنى الأمانة والتغافل وإدارة الخطأ. وهنا يتكشف لنا أن القرآن لا يبيّن الإنسان من خلال الأحكام الكبرى وحدها، بل من خلال قدرته على أن يحفظ كلمة، وأن يصون ثقة، وأن يعرف ولا يفضح، وأن يواجه بعض الخطأ ويترك بعضه، وأن يملك المعلومة دون أن تتحول المعلومة في يده إلى أداة انتصار على الآخر. إن الأخلاق العظمى لا تظهر دائماً في المواقف الكبرى، بل قد يتحدد معدن الإنسان في سر لم يفشه، وفي زلة عرفها فسترها، وفي قدرة على الاستقصاء اختار ألا يستعملها كلها.

ثم تنجّه السورة إلى القلب نفسه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ﴾، فيتحول الخطاب من ظاهر السلوك إلى باطن المنشأ، وهنا تكشف سورة التحريم إحدى أكثر حقائق النفس دقة: أن الخطأ الكبير قد يبدأ بميل صغير، وأن القلب لا يقطع المسافات الهائلة دفعة واحدة، بل يخرف أحياناً بقدر لا يكاد يلحظ، ثم تتراكم الخطوات حتى يصبح الميل طريقاً. ولهذا كانت التوبة في السورة ليست مجرد محو لذنوب بعد وقوعه، بل إعادة توجيهه، ورداً للقلب إلى مركزه الأول، وكأنها تصحيح للبوصلة قبل أن تكون ترميماً للماضي. ومن هنا نكرر ولاية الله في قلب السياق: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَا كُفْرٍ﴾، ثم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾، حتى ندرك أن الخطيئة العميقة الذي يشد السورة كلها ليس قصة بيتية ولا حادثة عابرة، وإنما تحرير القلب من كل مركز ينازع الله موضع المولى والمرجع.

ومن هذه النقطة تبدأ دائرة السورة في الاتساع؛ فما كان في بيت النبوة يتحول إلى نداء للأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾، وكأن القرآن يقول إن إصلاح البيت لا يقف عند إدارة الغيرة والسر والعاطفة، بل يبلغ ذروته في سؤال المصير. أنت لا تحب أهلك حقاً إذا كان أقصى ما تريده لهم أن يأكلوا جيداً، وأن يدرسوا، وأن يملكوا بيوتاً وأموالاً ومكانة؛ فهناك شيء أبعد من ذلك كله: أن ينجوا. والمحبة التي لا تبلغ الخوف على الآخرة تبقى محبة ناقصة، وإن كانت صادقة في دوافعها. ومن هنا يعاد تعريف وظيفة

الأُسرة؛ فهي ليست شركة معيشة فحسب، بل موضع تربية ووقاية وحراسة للمعنى، ومكان يتعلم فيه الإنسان كيف يرى الله قبل أن يخرج إلى العالم.

ثم تضع السورة الإنسان أمام النار، لا لتدفعه إلى اليأس، بل لتمنحه حساسية المصير، ثم تفتح بعد ذلك مباشرة أبواب التوبة النصوح، حتى لا يظل الخوف بلا طريق: ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾، وهنا تنتقل السورة من حرارة الخوف إلى نور الرجاء، ومن صورة الوقود والملائكة الغلاظ الشداد إلى صورة الجنات والنور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيامهم. وليس هذا الانتقال مجرد تعاقب بين الترهيب والترغيب، بل هو بناء كامل لفلسفة النجاة في القرآن: تعرف الخطر، فلا تغتر؛ وترى الباب مفتوحاً، فلا تيأس؛ وتسير إلى الله، فلا تعتمد على نفسك؛ ثم إذا أضاء لك شيء من النور لم تقل اكتفيت، بل دعوت: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا﴾.

ثم يأتي القسم الأخير من السورة ليهدم ما بقي في النفس من أوهام الاتكال على الخارج؛ فالقرب من النبي لا يغني بلا إيمان، وبيت الصالح لا يصنع الصلاح قهراً، كما أن بيت الطاغية لا يمنع القلب الصادق من بلوغ الله. امرأة نوح وامرأة لوط تعيشان في أقرب موضع يمكن تخيله من النبوة ثم لا ينفعهما ذلك، وامرأة فرعون تعيش تحت سقف أحد أعظم الطغاة ثم تقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، ومريم ابنة عمران تحمل طهرها وتصديقها وقوتها في عالم شديد الاختبار، فتأتي هذه النماذج في ختام السورة كأنها حكم نهائي على كل الأعذار: البيئة تؤثر، لكنها لا تخلق المصير وحدها، والقربة تفتح أبواباً، لكنها لا تمنح الإيمان، والانتفاء قد يساعدك، لكنه لا يستطيع أن يعبد عنك، والإنسان في النهاية يواجه الله بقلبه هو.

ولهذا لا يطمح هذا الكتاب إلى أن يعيد تفسير سورة التحريم تفسيراً مدرسياً يكرر ما استقر في كتب التفسير، ولا إلى أن يجعل التأمل بديلاً عن العلم الموروث، وإنما ينطلق من معاني السورة الثابتة وسياقها وبيانها ليقترّب من المساحات التي تمس الإنسان المعاصر في قلبه وبيته وعلاقاته وخوفه من الناس وتعلقه برضاهم ووعيه بالسر والوفاء والتوبة ومسؤوليته عن أهله. سنحاول أن نسمع الأسئلة التي تطرحها الآيات على دواخلنا، لا أن

نستعمل القرآن مرآة للآخرين فقط؛ فأسوأ قراءة للقرآن هي التي تجعل كل آية سهماً نوجهه إلى الناس ولا تجعل منها نوراً تكشف به أنفسنا.

وسيمضي التأمل في هذا الكتاب آية آية، مع مراعاة السياق الذي تنتظم فيه السورة، وعدم اقتطاع الإشارة الوجدانية من أصل المعنى، والتمييز بين ما يدل عليه النص وما يفتح باباً للتدبر والاعتبار. فالتدبر ليس أن ننسب إلى القرآن ما لم يقل، وإنما أن نطيل الوقوف أمام ما قال حتى نتكشف لنا امتداداته في النفس والحياة، وأن نرى كيف تنتقل العبارة القرآنية من حادثة وقعت في القرن الأول إلى قانون روحي يتكرر في كل بيت، وكيف تصبح كلمات مثل المرضاة، والسر، والميل، والتوبة، والولاية، والوقاية، والنور، والنجاة مفاتيح لفهم الإنسان نفسه.

وسنحاول كذلك أن نحفظ للسورة توازنها العجيب؛ فهي ليست سورة لوم كما قد يتوهم من يقف عند بدايتها، وليست سورة تهديد كما قد يشعر من يمر سريعاً بوسطها، وإنما سورة إنقاذ: تصحح الحب حتى لا يصبح عبودية، وتصون البيت حتى لا تفسده خيانة السر، وتكشف الميل كي يسبق التوبة استفتاحه، وتذكر النار كي لا ينام القلب، وتفتح باب التوبة كي لا ييأس، وتربك نور الآخرة كي تعرف قيمة إيمانك اليوم، ثم تضرب لك الأمثال حتى تفهم أن أحداً لا يستطيع أن يمشي إلى الله نيابة عنك.

ومن هنا يمكن أن نقرأ السورة كلها بوصفها رحلة انتقال من مركز بشري إلى مركز رباني: من «مرضاة أزواجك» إلى «والله مولاكم»، ومن سر يدار بين الناس إلى «العليم الخبير»، ومن قلب يميل إلى قلب يتوب، ومن بيت يخشى على راحته إلى بيت يخشى على مصيره، ومن نار تحذر منها إلى نور تسعى في أثره، ومن اعتماد على القرابة والبيئة إلى مسؤولية فردية كاملة أمام الله. وهي رحلة لا تطلب من الإنسان أن يهجر العالم، بل أن يعيد ترتيب العالم في قلبه؛ فيحب بلا عبودية، ويخالط بلا ذوبان، ويسكن البيوت دون أن يجعلها أصناماً، ويقدر البشر دون أن يمنحهم موضع المولى.

ولعل أجمل ما يمكن أن نبدأ به هذه الرحلة هو أن ندخل السورة لا بوصفها قصة عن آخرين، بل باعتبارها سؤالاً موجهاً إلينا الآن: ما الذي حرمانه على أنفسنا طلباً للقبول؟ أي

الأسرار لم نحفظ؟ أي ميول صغيرة أهملناها حتى كبرت؟ من هو المولى الحقيقي في قلوبنا حين نتعارض الرغبات؟ كيف نقي أهلنا دون أن نحول الدين إلى قسوة؟ هل توبتنا مجرد ندم موسمي أم رجوع يعيد تشكيل الطريق؟ وما مقدار النور الذي نصنعه اليوم ليكون معنا غداً؟

وحين نقرأ السورة بهذه الروح، لن يبقى بيت النبي في أولها بعيداً عنا، ولا قصر فرعون في آخرها حدثاً من التاريخ، بل سنكتشف أن في داخل كل إنسان شيئاً من هذه المعارك كلها: مرضاة يخشى خسارتها، وسراً يحتاج أن يحفظه، وقلباً يمكن أن يميل، وتوبةً ينتظرها الله منه، وأهلاً يخاف عليهم، وناراً ينبغي أن يتقيها، ونوراً يرجو تمامه، وبيئة قد تضغط عليه، وبيتاً في الجنة يشتاق إليه. وعندها تصبح سورة التحريم مرآة لا تغادرها كما دخلناها، لأن من رأى قلبه في القرآن لا يعود

## الفصل الأول

حين يدخل الوحي إلى أخصى غرف القلب

تأملات في الآيات الثلاث الأولى من سورة التحريم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

تبدأ سورة التحريم من موضع لا يتوقع الإنسان عادة أن تبدأ منه سورة من القرآن؛ لا تبدأ من ساحة حرب، ولا من جدال مع المشركين، ولا من مشهد كوني تتشقق له الأبصار، ولا من تشريع عام نلتقاه الأمة في ساحاتها ومساجدها وأسواقها، وإنما تدخل منذ الكلمة الأولى إلى البيت النبوي، إلى المنطقة التي نميل بطبعنا إلى عدّها شأنًا شخصيًا خالصًا، إلى ذلك الحيز الدقيق الذي تتداخل فيه المحبة بالعاطفة، والرغبة في الإرضاء بمرعاة النفوس، وتحرك فيه القلوب بحساسيتها البشرية التي لا يراها الناس من وراء الجدران؛ فكأن السورة تريد منذ مطلعها أن تهدم في وعينا ذلك الفصل المتوهم بين الإيمان والحياة، بين الوحي والبيت، بين العبودية والمشاعر، لتقول لنا إن الله لا يريد من الإنسان أن يكون عبدًا له في المسجد ثم يترك بقية قلبه نهبا لموازين أخرى، وإن النور الذي جاء ليهدي التاريخ كله لا يقف على عتبة البيت، بل يدخل إلى أرق العلاقات وأشدها خصوصية، لأن أعظم الاختبارات قد لا تقع حيث ترتفع الرايات، وإنما حيث نحب، وحيث نخاف أن نخسر محبة من نحب، وحيث نحاول أحياناً أن نشترى رضا القريب بشيء من التضيق على أنفسنا، ثم لا نشعر أن المسألة قد انتقلت من مجرد مجاملة عاطفية إلى خلل في ميزان المرجعية الداخلية.

ولفظ النداء نفسه يملأ القلب أدباً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، فلم يُنزع عنه مقام النبوة وهو يُعاتب، ولم تُسقط منزلته لأنه اجتهد في أمر لم يكن الأولى به؛ فالقرآن يعلمنا منذ أول حرف من هذا العتاب أن التصحيح لا يقتضي الإهانة، وأن بيان الخطأ لا يستلزم إسقاط صاحب الخطأ، وأن العتاب النبيل هو الذي يحفظ للإنسان مقامه وهو يرده إلى الصواب، ولعل مجتمعاتنا لم نتعلم بعد هذه الحكمة القرآنية كما ينبغي؛ فنحن حين نختلف مع إنسان كثيراً ما نخو تاريخه كله بسبب موقف، وننزع عنه فضله بسبب هفوة، ونحوّل التصحيح

إلى محاكمة للذات لا للفعل، بينما جاء الخطاب الإلهي لنبيه صلى الله عليه وسلم مشحوناً بالتكريم حتى في موضع المراجعة: يا أيها النبي، ثم جاء السؤال: ﴿لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، كأن المكانة محفوظة، ولكن الميزان كذلك محفوظ، فلا القداسة البشرية تلغي المراجعة، ولا المراجعة تلغي الفضل، وهذه وحدها مدرسة في عدل الروح لا يكاد الناس يبلغونها إلا حين يتأدبون بالوحي.

وهذا الاستفهام: ﴿لَمْ تُحَرِّمْ﴾ ليس مجرد سؤال يطلب معلومة، فالله يعلم السر وأخفى، ولكنه سؤال يوقظ ميزاناً، ويعيد ترتيب الجهات في القلب: من الذي يملك التحليل والتحريم؟ ومن الذي ينبغي أن تكون إرادته الحد الأعلى الذي تتوقف عنده إرادات البشر جميعاً؟ إنك قد تفعل الشيء بدافع نبيل، وقد يكون باعثك الحب، وقد تريد أن تحافظ على صفاء بيتك أو رضا من حولك، ولكن النية الحسنة لا تجعل كل وسيلة صحيحة، والمحبة نفسها تحتاج إلى أن تدخل تحت سلطان الحق؛ لأن الإنسان متى جعل رضا الناس سقفاً أعلى من الحد الذي رسمه الله بدأ من حيث لا يشعر يغير تضاريس حياته من أجل نظرات الآخرين، فيترك مباحاً لثلاً يغضب فلان، ويحمل نفسه ما لم يكلفه الله به كيلا يخسر فلاناً، ويتنازل عن بعض سكينه ضيمه كي يحتفظ بمكانه في قلب فلان، حتى يصبح أسيراً لما يمكن أن نسميه «الابتزاز العاطفي الصامت»؛ لا أحد يأمره صراحة، ولكن خوفه من الفقد يأمره، ولا أحد يضع القيد في يده، ولكن حاجته إلى رضا الآخرين تفعل ذلك، ومن هنا يأتي القرآن لا ليطفىء المحبة، بل ليحررها، ولا ليجعل الإنسان قاسياً على أهله، بل ليضع الحب في مرتبته الصحيحة: نحب الناس في الله، ونحسن إليهم بما يرضي الله، ونطلب سكينتهم، ولكننا لا نبني سعادتهم على مخالفة ميزان الله، لأن المحبة التي تطلب منك أن تضيق على ما وسع الله ليست محبة قد بلغت تمام رشدها.

﴿تَبَتَّغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، وما ألطف هذا الكشف القرآني لدافع النفس؛ لم يقل إن الفعل نشأ من استعلاء أو جفاء أو هوى فاسد، بل كشف أن وراء ابتغاء المرضاة، وهنا تبلغ الآية موضعاً شديداً الدقة في تربية القلب، إذ تخبرنا أن الإنسان قد يحتاج إلى التصحيح حتى حين يكون المحرك في داخله كريماً، لأن نقاء الدافع لا يعصم الفعل من أن يجاوز حد الاعتدال، وكم من إنسان أفسد أبناءه من شدة حبه لهم، وكم من أب أضعف

شخصية ولده لأنه أراد ألا يراه حزيناً، وكم من أم أرهقت نفسها لأنها ظنت أن الحب يعني أن تلسي كل مطالبة، وكم من زوج أو زوجة دفن جزءاً من ذاته المشروعة تحت ركام التنازلات خوفاً على العلاقة، وكم من داعية سكت عن كلمة حق «ابتغاء مرضاة» جمهوره، وكم من كاتب خفف من وضوح الفكرة خوفاً من خسارة قرائه، وكم من مسؤول مرر الخطأ خشية اضطراب المحيطين به، فليس الخطر دائماً أن تريد الشر، بل قد يكون الخطر أحياناً في أن تريد الخير بطريقة تجعل رضا المخلوق يتدد حتى يحتل مساحة لا يستحقها.

ومع ذلك لا تنتهي الآية بقسوة، ولا يغلق العتاب بباب موصد، بل ينحدر في آخرها نهران من أسماء الله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وهنا تتكشف طبيعة التربية الربانية؛ فالله الذي يصحح لا يريد أن يحطم، والذي يكشف الخلل لا يريد أن يسلم القلب لليأس، وكأن الآية تقول لكل من اكتشف أن عاطفته قد جرت به إلى غير الأولى: عد، فالباب مفتوح؛ ولكل من حمل نفسه أحمالاً لم يحملها الله إياها طلباً لرضا الناس: ألقها وعد إلى السعة التي وسعك الله بها؛ ولكل من خلط بين الإحسان إلى الخلق واستعباد النفس لنظراتهم: إن ربك غفور رحيم. وما أبدع أن تأتي المغفرة بعد سؤال العتاب، لأن الله يعلم ثقل الانكشاف على النفس، ويعلم أن الإنسان حين يرى خطأه قد يتحول وعيه به إلى سوط يجلد به ذاته، فيفتح له سبحانه نافذة الرحمة قبل أن يخنق في غرفة الدم، والتوبة في القرآن ليست إقامة دائمة في خراب الأمس، وإنما عبور منه إلى سعة الله.

ثم تنتقل السورة من كشف الخلل إلى فتح طريق الخروج منه، فلا تترك النفس واقفة أمام خطئها، لأن التربية القرآنية ليست فناً في تأنيب الإنسان، بل في إعادته إلى الطريق:

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

إن من أعظم وجوه الرحمة في الشريعة أنها لا تجعل الكلمة التي خرجت منك في لحظة انفعال سجنأ أبدياً، ولا تجعل القسم الذي تبين لك أن الخير في خلافه قيداً يحرمك الرجوع إلى الأهدى؛ فالله شرع للأيمان مخرجاً، لأن الدين لم يأت ليحول الإنسان إلى أسير لماضيه، وإنما ليعلمه كيف يصحح مساره حين يستبين له الطريق، وهذه دلالة شديدة

الجمال في بناء الشخصية المؤمنة: الثبات ليس أن تستمر في كل قرار لأنك اتخذته، ولا أن تمضي في كل اتجاه لأنك أعلنت عنه، ولا أن تنصلب أمام ظهور الحق كي تحافظ على صورتك أمام الناس، بل قد يكون الثبات على الحق في أن تتراجع عن قرار، وأن تحل عقدة صنعتها بلسانك، وأن تعترف بأن الطريق الذي حسبته صواباً لم يعد كذلك بعد أن بان لك وجه آخر من الهدى.

ولكم يعذب الإنسان نفسه أحياناً بعبارات صنعها هو ثم منحها في داخله منزلة الأقدار التي لا تتغير: «لن أفعل هذا أبداً»، «لن أكلم فلاناً ما حييت»، «لن أرجع عن قراري»، «أقسمت أن أغلق هذا الباب»، ثم يمضي الزمن ويتغير المشهد، ويظهر له أن الصلح خير، وأن الرجوع أعدل، وأن إعادة النظر أرحم، ولكن كبرياءه يتخفى في هيئة وفاء بالكلمة، فيستمر في الضرر لا لأن الله يحبه، بل لأنه لا يريد أن يبدو مترجعاً، فتأتي روح هذه الآية لتقول إن المؤمن لا يعبد أقواله السابقة، وإنما يعبد الله، وإن الكلمات التي صدرت منك ليست إلهاً يحكم مستقبلك، وإن باب التكفير عن اليمين لم يشرع عبثاً، وإنما ليبقى الحق أعلى من عناد النفس، والخير أكبر من هيبة التراجع، ولتبقى الشريعة دائماً ممرّاً من الخطأ إلى التصحيح لا متحفاً نحفظ فيه أخطاءنا احتراماً لاتساق الصورة.

ثم تأتي الجملة التي ترد القلب إلى مركزه بعد أن مر الحديث بالزوجات والمرضاة والأيمان: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاَ كُفْرٍ﴾؛ وهذه ليست جملة انتقالية، وإنما هي قلب المعنى كله، فمن عرف من موله تحرر من طغيان كل ولاء أصغر، ومن استقر في قلبه أن الله موله لم يعد رضا الناس قادراً على اقتياده بعيداً عن حدوده، ولم يعد خوفه من خسارتهم أقوى من ثقته بمن يتولاه؛ والمولى هو الذي تكون له الولاية والنصرة والتدبير والقرب، فكأن الآية تعيد الإنسان من محيط الانفعالات البشرية إلى مركز الأمان: أنت لا تحتاج أن تمزق نفسك كي تحافظ على كل قلب، لأن قلبك نفسه في ولاية الله، ولا تحتاج أن تشتري القبول بتنازلات تستنزف روحك، لأن الذي يملك قدرك ومستقبلك وسكينتك ليس الناس، وإنما الله مولاك.

وهذه الجملة لو سكنت الإنسان حقاً لأعادت بناء كثير من علاقاته؛ فالذي يعلم أن الله موله يحب من غير ذل، ويعطي من غير أن يفقد نفسه، ويعتذر من غير مهانة، ويرفض

من غير قسوة، ويستطيع أن يخسر إعجاب أحد إذا كان ثمن الإعجاب أن يخسر سلامه مع ربه، لأن الولاية الإلهية تمنح القلب استقلاله النبيل، فلا يعود يتقلب مع تقلب الوجوه، ولا يعيش في سوق القبول الاجتماعي يعرض نفسه كل صباح متسائلاً: من رضي عني اليوم؟ ومن غضب؟ ومن صفق؟ ومن انصرف؟ إن هناك مقاماً أرفع من أن يحصي الإنسان إعجابات الناس وغضبهم: أن يسأل نفسه هل أنا في موضع يحبه مولاي؟ فإذا استقام هذا السؤال صغرت آلاف الأسئلة التي كانت تستنزف عمره.

ثم تختم الآية باسمين يناسبان كل ما جرى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، فهو العليم بما دفعك إلى الفعل قبل أن تفهم أنت دوافعك، العليم بطبقات النية التي تختلط فيها المحبة بالخوف، والرحمة بالحاجة إلى القبول، والإحسان بالرغبة في تجنب المواجهة، والعليم بما يصلح بيتك وما يفسده، وما ينبغي أن تتمسك به وما ينبغي أن تتخلل منه، ثم هو الحكيم الذي لا يشرع لك شيئاً عبثاً، فلا سعة الحلال بلا حكمة، ولا تحلة الإيمان بلا حكمة، ولا التصحيح الذي جاء في هذا الموضع بلا حكمة؛ ومن عرف علم الله وثق بتوجيهه، ومن عرف حكمته لم يعارض أمره بمشاعره العابرة، لأنه يعلم أن ما يراه الآن من زاوية واحدة يراه الله كاملاً من حيث لا يحده عليه زمان ولا مكان.

ثم يفتح القرآن باباً أكثر خفاءً، ويدخل بنا من دائرة القرار الظاهر إلى عالم السر، إلى تلك الكلمات التي لا يسمعها إلا اثنان ثم تكتشف فجأة أن السماء كانت شاهدة:

﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

إن السورة هنا تنقلنا إلى مدرسة أخرى من مدارس الإيمان: حرمة السر. والسر ليس مجرد معلومة قليلة التداول، بل هو أمانة يمنحك إياها قلب آخر حين يثق بك بما لا يثق به بغيرك؛ ولذلك فإن إفشاء السر ليس نقلاً للكلمات فقط، وإنما كسر لبنية خفية اسمها الثقة، والخيانة في هذا المقام لا تقاس بحجم المعلومة، بل بحجم الباب الذي فُتح لك ثم لم تحفظه، فقد يكون السر في ذاته صغيراً، ولكن إفشاءه يكشف أن النفس لم ترتق بعد إلى مستوى الأمانة التي منحت لها. ومن عجب القرآن أنه لا يربي الأمة على أخلاق المناير

فقط، بل على أخلاق الغرف المغلقة، حيث لا جمهور يراقبك ولا سمعة تحشى عليها، وحيث يكون الاختبار خالصاً بينك وبين الله: هل تحفظ ما استودعت ولو استطعت أن ترويه ولم يكتشف أحد أنك رويته؟

واختلفت الروايات في تفاصيل الواقعة التي نزلت فيها هذه الآيات، غير أن القرآن، على عادته العظيمة، لا يجعل بقاء الهداية معلقاً بالتفاصيل التي اختلف النقل فيها؛ فقد أبقى من القصة ما تبقى به التربية إلى يوم القيامة، وكأن القرآن ينتشل الحدث من ظرفه ليحوّله إلى قانون في النفس: هناك سر، وهناك إفشاء، وهناك علم إلهي أحاط بما حدث، وهناك أخلاق نبوية في معالجة الخطأ. وهذه الطريقة القرآنية في القص والحكاية شديدة الدلالة؛ فليس المقصود أن تتحول بيوت النبوة إلى مادة للفضول، وإنما أن يتحول ما وقع فيها إلى نور يهذب بيوت المؤمنين، وبين الفضول والتدبر مسافة أخلاقية هائلة: الفضول يريد أن يعرف ماذا وقع بين الأشخاص، أما التدبر فيسأل ماذا يريد الله أن يقع في قلبي وأنا أقرأ ما وقع.

﴿فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ ياله من تركيب يهز شعور الإنسان تجاه الخفاء كله، فما أسرع ما تنتقل الآية من فعل بشري محجوب إلى علم إلهي مكشوف: أسر الحديث، ثم نقل، ثم أظهره الله. هناك دائماً عين من العلم لا تمام، وليست مراقبة الله هنا مراقبة شرطي يترصد، بل إحاطة الرب الذي لا تضيق في علمه أمانة ولا دمعة ولا خيانة ولا وفاء. وكم من سر أفساه إنسان وظن أن الحكاية انتهت لأن صاحبها لم يعلم، وكم من كلمة قيلت في غياب صاحبها وتفرقت في المجالس حتى نسيها قائلها، لكنها لم تغب لحظة عن علم الله، وكم من إنسان حفظ سرّاً ثلاثين سنة ولم يشكره أحد لأنه لم يعرف أحد أنه حفظه، ولكن «العليم الخبير» علم هذا الوفاء كله؛ ولذلك فإن الأخلاق في التصور القرآني لا تحتاج دائماً إلى شاهد بشري، إذ يكفيها أن تقع تحت علم الله حتى تكتسب وزنها الكامل.

ثم تأتي واحدة من أرق وأعجب الإشارات التربوية في السورة: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، وهنا لا نقرأ مجرد تفصيل من واقعة أسرية، بل نرى خلقاً نبوياً بالغ السمو في التعامل مع أخطاء من نحب؛ فقد كان قادراً، بعد أن أطلعه الله، أن يسرد كل التفاصيل، وأن يواجه بكل كلمة، وأن يقيم محكمة كاملة للخطأ، لكنه عرّف بعضه

وأعرض عن بعضه. وما أكثر ما نحتاج إلى هذا الخلق في زمن أصبح الناس فيه بارعين في التحقيق مع بعضهم، يجمع أحدهم أخطاء الآخر كما يجمع المحقق الأدلة، ثم إذا جاءت لحظة المواجهة أخرج الملف كله: قلت يوم كذا، وفعلت قبل عام، ونظرت بهذه الطريقة، ونسيت في الموقف الفلاني، حتى لا يبقى للآخر منفذ يتنفس منه؛ بينما التربية النبوية تعلمنا أن العلم بكل شيء لا يعني أن تقول كل شيء، وأن قدرتك على إحراج المخطئ ليست إذناً لك أن تخرجه، وأن بعض التغافل ليس ضعفاً في الفهم، بل قوة في الخلق.

وهناك فرق هائل بين الغافل والمتغافل؛ الغافل لا يرى، أما المتغافل فيرى ثم يختار أن يمر على بعض ما رأى كيلا يحطم العلاقة، لأنه أدرك أن المقصود من العتاب هو الإصلاح لا استيفاء لذة الانتصار. ولعل كثيراً من البيوت كان يمكن أن تنجو لو تعلم أهلها هذه الكلمات الأربع: ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ بَعْضٍ﴾؛ فليست كل زلة تحتاج إلى جلسة مطولة، ولا كل خطأ يستحق أن يستخرج من أرشيف الذاكرة، ولا كل كلمة عابرة ينبغي أن تبقى شاهداً في المحكمة الزوجية إلى آخر العمر، بل من الحكمة أن تفتح لبعض الأشياء باباً يخرج منه ولا يعود، لأن البيوت التي لا تعرف النسيان الاختياري تتحول إلى مستودعات للعتاب، وكل خلاف جديد فيها يوقظ قبور الخلافات القديمة.

وما أجمل أن يكون هذا التغافل في قلب القوة لا في قلب العجز؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يُعرض عن بعض الأمر لأنه لم يعرفه، بل القرآن يصرح بأن الله أظهره عليه، ثم وقع الاختيار الأخلاقي: يعرف بعضاً ويعرض عن بعض، وبذلك يصبح الصفح أكثر جمالاً حين يصدر ممن كان قادراً على الاستقصاء، ويصبح الحلم أرفع حين يأتي ممن يملك أن يواجه، وتصبح الرحمة أخلاقاً حقيقية لا مجرد اضطراب. إن كثيراً من الناس يظنون أن الذكاء يعني أن تري الآخر أنك عرفت كل شيء، بينما الذكاء الأخلاقي أرفع من ذلك: أن تعرف ما الذي ينبغي إظهاره، وما الذي يكفي أن يعرف الله أنك عرفته.

ثم تتقف الزوجة أمام المفاجأة: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾؛ وهذا السؤال يكشف طبيعة الإنسان حين يظن أن الدائرة التي جرت فيها الأشياء مغلقة، فينشغل أولاً بمصدر انكشاف السر قبل أن ينشغل بحقيقة ما فعل، وكأن النفس حين تفاجأ بأن ما أخفته قد ظهر تبحث عن الثغرة: من قال؟ كيف عرفت؟ من أخبرك؟ وهي آلية بشرية متكررة إلى

يومنا؛ فالإنسان قد ينزعج من انكشاف الخطأ أكثر من انزعاجه من الخطأ ذاته، ويهتم بمن سرب الخبر أكثر مما يهتم بإصلاح ما جعل الخبر مؤلماً أصلاً، وتلك من حيل النفس في الفرار من الداخل إلى الخارج. لكن الجواب يأتي قاطعاً، قصيراً، مرزلاً لكل وهم بالاختباء:

﴿قَالَ نَبَّأِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

وهنا ترتفع القصة فجأة من غرفة صغيرة إلى أفق الألوهية، ومن سر دار بين أفراد إلى اسمين من أسماء الله، وكأن كل السورة كانت تسير لتضع القلب أمام هذه الحقيقة: أنت تعيش تحت علم العليم وخبرة الخبير. يعلم ظاهر الفعل ويعلم باطنه، يعلم الكلمة ويعلم ما سبقها في النفس، يعلم لماذا قتلها، ولماذا أخفيها، ولماذا نقلتها، ويعلم الأثر الذي تركته في قلب غيرك ولو لم تستطع أنت أن تقيسه، فهو «العليم» الذي أحاط بالأشياء علماً، و«الخبير» الذي لا تقف معرفته عند سطح الظواهر، بل تنفذ إلى بواطنها ودقائقها ومسارها الخفية.

وحين يعرف الإنسان ربه «العليم الخبير» تتغير علاقته بالخلوة؛ فلا يعود وحده حين يغلق الباب، ولا يكون السر منطقة خارج سلطان الأخلاق، ولا يصبح غياب الناس رخصة للتلون، بل يبدأ مقام المراقبة في بناء إنسان واحد الوجه، لا يحتاج إلى كاميرات كي يكون أميناً، ولا إلى شهود كي يكون نقياً، ولا إلى خوف الفضيحة كي يكف عن الخيانة، لأن هناك معرفة أرفع من كل معرفة بشرية تحيط به. وليس القصد أن يعيش المؤمن مرتعاً من الله كما يعيش المتهم تحت عين الحارس، بل أن يعيش مستيقظاً، فكما أن «العليم الخبير» يعلم ما تخفي من تقصير، فإنه يعلم أيضاً ما تخفي من خير، يعلم دمة لم يرها أحد، وصدقة خرجت دون اسم، وكلمة سوء كتمتها احتراماً لعرض أخيك، وسراً دفتته في صدرك وفاء لمن أثمتك، وموقفاً استطعت فيه أن تفضح ثم سترت؛ فإذا لم يصفق لك أحد على أخلاقك، فحسبك أن العليم الخبير قد علمها.

وهكذا، في ثلاث آيات فقط، تكون سورة التحريم قد فتحت أمامنا أبواباً واسعة من تربية النفس لا يكاد بعضها ينفصل عن بعض؛ بدأت بحب يريد إرضاء الآخرين، فأعادت الحب إلى ميزان الله، ثم فتحت باب الرجوع حتى لا يصبح الإنسان سجين كلمة قالها، ثم

ردته إلى معنى الولاية: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾، ثم أدخلته عالم الأسرار والأمانات، ثم أرتبه كيف يواجه الخطأ بلا تشفٍ: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، ثم رفعت سقف الوعي كله إلى السماء: ﴿نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾. وكأن القرآن يريد أن يبني البيت المؤمن من الداخل قبل أن يحذره عن مواجهة العالم، وأن يقول له: إن الحضارات التي لا تعرف كيف تحفظ سرّاً في غرفة لن تنفعها خطابات الأمانة في الميادين، وإن الإنسان الذي لا يستطيع أن يوازن بين رضا من يحب ورضا الله لن يستطيع أن يقف ثابتاً حين تصبح الضغوط أكبر، وإن الإصلاح الحقيقي يبدأ في هذه المساحات التي يظنها الناس صغيرة: كلمة بين زوجين، قسم صدر في لحظة عاطفة، سر انتقل من صدر إلى صدر، عتاب اختار صاحبه ألا يقول فيه كل ما يعرف.

وهنا تبدى عظمة البداية في سورة التحريم؛ فهي لا تحكي لنا قصة بيت لكي تنفجر على بيت النبوة من نافذة التاريخ، بل تفتح بيت النبوة ليكون مرآة نرى فيها بيوتنا وقلوبنا: من الذي نبالغ في طلب رضاه؟ وما الذي حرمناه على أنفسنا ولم يحرمه الله؟ وأي قرارات صرنا أسرى لها مجرد أننا قلناها في ساعة غضب؟ وأي سر لم نحفظه كما ينبغي؟ وأي إنسان أخطأ في حقنا فواجهناه بكل ما نعرف بدلاً من أن نعرف بعضاً ونعرض عن بعض؟ وكما من أشياء نفعلها في الظلام لأننا نسينا للحظة واحدة أن الذي فوقنا ليس غائباً، وأن أسماءه ليست معاني تحفظ في كتب العقائد وحدها، بل حقائق تسير معنا إلى غرفنا المغلقة: العلم، الخبير.

ومن هنا تبدو سورة التحريم منذ افتتاحها سورةً في تحرير الداخل قبل أن تكون سورة في معالجة حادثة؛ تحرير القلب من عبودية المرضاة، وتحرير الإنسان من أسر الكلمة إذا ظهر له الخير في الرجوع عنها، وتحرير العلاقات من شهوة كشف كل شيء ومعاينة كل خطأ، وتحرير السر من خفة اللسان، وتحرير الضمير من وهم الاختفاء. إنها تقول لك منذ آياتها الأولى: اجعل الله أكبر جهة في قلبك، فإذا أحببت فأحب تحت نوره، وإذا أرضيت فأرض في حدوده، وإذا وعدت أو حلفت فلا تجعل كلمة منك أعلى من حكمه، وإذا أوثقت فاذكر العلم الخبير، وإذا قدرت على فضح زلة فتعلم من نبيك الكريم أن من كمال المروءة أن تعرف بعضاً وتعرض عن بعض.

ومن هذا البيت الذي دخل إليه الوحي ليعيد ترتيب المشاعر والأسرار، ستفتح السورة في آياتها التالية أبواباً أشد اتساعاً؛ فالقضية لن تبقى قصة بين زوج وأزواجه، وإنما سترتفع إلى التوبة، وإلى تربية النفس والأهل، وإلى النار التي ينبغي أن يُوقى منها الإنسان ومن يحب، ثم إلى الجهاد، ثم إلى أمثلة نسائية عجيبة تضع أمام القلب آخر السورة ميزاناً لا يرحم الأوهام: قرب الأجساد لا يصنع قرباً من الله، وانتساب الإنسان إلى الصالحين لا ينجيهِ بلا إيمان، كما أن الوحدة وسط الفساد لا تمنع روحاً صادقة من أن تبلغ أعلى مقامات القرب. وما بين أول السورة وآخرها رحلة كاملة في معنى أن يكون الله هو المرجع الأعظم للإنسان، في بيته، وفي سره، وفي أهله، وفي خوفه، وفي مصيره.

## الفصل الثاني

حين يميل القلب وقيمه الله

تأملات في الآيتين الرابعة والخامسة من سورة التحريم

﴿إِنْ تُبُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾

تنتقل السورة هنا من معالجة الحدث إلى معالجة المنبع الذي خرج منه الحدث، ومن ظاهر التصرف إلى الموضع الذي تشكل فيه التصرفات قبل أن تغادر الإنسان إلى العالم: القلب؛ فكأن القرآن لا يكتفي بأن يقول إن كلمة قبلت أو سراً أفشي أو موقفاً وقع، بل يمد يده إلى أعماق النفس ليدها على موضع الميل نفسه، لأن السلوك في التصور القرآني ليس نباتاً بلا جذر، وكل حركة على سطح الحياة وراءها انحناء خفية في الداخل، فإذا أصلح الله ذلك الداخل استقام الكثير مما في الخارج من تلقاء نفسه، ولهذا جاءت العبارة العجيبة: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أي مالت، وما أعمق أن يصف القرآن الخلل هنا بأنه ميل للقلب؛ فلم يجعل القضية ابتداءً سقوطاً هائلاً، وإنما انحرافاً دقيقاً في الاتجاه، لأن أخطر التحولات في حياة الإنسان لا تبدأ دائماً بانهيار ظاهر، بل قد تبدأ بدرجة صغيرة من الميل لا يراها أحد، ثم إذا تركت لنفسها صنعت مع الأيام مسافة شاسعة بين القلب وبين الموضع الذي كان ينبغي أن يكون فيه.

والقلب لا يخرف دفعة واحدة في كثير من الأحيان؛ إنما يصغي قليلاً إلى الغيرة، أو يسترسل قليلاً مع العتب، أو يترك المقارنة تسلل إليه، أو يمنح إحساساً عابراً حجماً أكبر من حجمه، ثم تبدأ زاوية الرؤية كلها في التغير، فيرى الإنسان ما كان يراه بالأمس صغيراً عظيماً، وما كان يراه عظيماً صغيراً، ويتحول إحساسه إلى عدسة تعيد تشكيل الواقع وفق مزاجه الداخلي. ولهذا كان إصلاح القلب أسبق من مجرد إصلاح الموقف؛ لأنك إذا أوقفت السلوك ولم تعالج الميل بقي الجذر حياً ينتظر فرصة أخرى ليخرج في صورة جديدة، أما إذا استقام القلب فقد جف منبع كثير من الأخطاء قبل أن تولد. وما أجدد الإنسان المعاصر، الذي يعيش تحت سليل لا ينقطع من المثيرات والمقارنات والصور

والتعليقات والانطباعات، أن يتعلم مراقبة هذه الانحناءات المبكرة في قلبه؛ فالغيرة قبل أن تصبح خصومة تكون إحساساً صغيراً، والحسد قبل أن يصبح أذى يكون ضيقاً داخلياً، والكبر قبل أن يصير استعلاء يكون إعجاباً بالنفس لم يُراجع، والقسوة قبل أن تصبح جفاء تكون اعتياداً بطيئاً على تجاهل آلام الآخرين، وأكثر النجاة تبدأ حين تلتقط القلب في أول ميله قبل أن يصنع الميل طريقاً.

لكن السورة لا تقول: لقد مالت قلوبكما فانهى الأمر، بل تفتح الباب بالكلمة التي صنعت تاريخ الصالحين كلهم: ﴿إِنْ تُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾؛ فالتوبة هنا ليست مجرد ندم على فعل ظاهر، وإنما إعادة للقلب إلى مركزه، وكأن مادتها الروحية الحقيقية هي الرجوع بعد الميل، والاستقامة بعد الانحناء، واسترداد البوصلة بعد أن جذبتها مغناطيسات النفس والعاطفة. وهذا من أجل ما يمكن أن يفهمه الإنسان عن التوبة؛ فهي ليست مقصورة على أصحاب الكبائر، ولا هي باب لا يطرقة إلا من سقط في وحل بعيد، بل هي حركة القلب الدائمة إلى الله كلما شعر بأنه مال مقدار شعرة عن مقام العبودية، ولذلك كان أحوج الناس إلى التوبة أكثرهم معرفة بخفيا قلوبهم، لأنهم يدركون أن الانحراف لا يقاس دائماً بصوت الفعل، بل أحياناً بموضع القلب من الله.

وما أرق أن يقول: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، فالتوبة ليست رجوعاً إلى صورة مثالية عن الذات، ولا عودة إلى السمعة الحسنة أمام الناس، ولا محاولة لترميم المظهر فحسب، وإنما رجوع إلى الله؛ إلى الجهة التي منها ضل الاتجاه، وإلى النور الذي به تعرف النفس موقعها، ولذلك قد يعتذر المرء للناس ويبقى قلبه بعيداً، وقد يصلح خطأه ظاهراً وتظل جذوره متشبثة بنفسه، أما التوبة إلى الله فهي شيء أعمق: أن تنكسر الحجة التي كنت تدافع بها عن نفسك، وأن يصبح الحق أحب إليك من الانتصار لروايتك، وأن تنظر إلى الحادثة بعين العبودية لا بعين الأناء، فتقول: ماذا يريد الله مني الآن؟ لا: كيف أثبت أنني كنت على حق؟ ومن هنا يولد التحول الحقيقي، لأن أكبر حاجز بين الإنسان وبين التوبة ليس دائماً الجهل بالخطأ، بل تعلقه بحق الدفاع عن نفسه.

والقلوب التي تنوب ليست القلوب التي لم تعرف الميل قط؛ فالإنسان مخلوق تجري عليه المشاعر، ويضعف ويغضب ويغار ويخطئ في التقدير، وإنما كماله البشري في أن يعرف

طريق العودة، وأن تكون المسافة بين ميله ورجوعه قصيرة، وأن يكون في داخله جرس يقطعة يرن كلما ابتعد عن الوسط، ولهذا فإن القرآن حين يكشف ميل القلب لا يقفل عليه باب الكرامة، بل يجعله مدعواً إلى التوبة، وكأن كرامة الإنسان ليست في الادعاء أنه لم يمل، وإنما في شجاعة أن يعود حين يعلم أنه مال. وكم ضاع من الناس لأنهم جعلوا الاعتراف بالخطأ انبهاراً للهيبة، فاختاروا حماية صورتهم على حماية قلوبهم، واستمروا في الخطأ لأن التراجع في ظنهم هزيمة، ولم يدركوا أن بعض الانتصارات الظاهرية هي أعمق الهزائم، وأن الإنسان قد يكسب الجدل كله ويخسر قلبه.

ثم تفتح الآية الاحتمال الآخر في لهجة تحمل إنذاراً بقدر ما تحمل من بيان لعظمة المقام: ﴿وَأَنْ تَظَاهَرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي إن نتعاوناً وتسانداً في موقف عليه، وهنا ترتفع السورة فوق حساسية المشهد الأسري إلى قانون أكبر: لا ينبغي لتحالف المشاعر أن يقف أمام الحق، ولا لكثرة الموافقين لك أن تمنح موقفك شرعية إن كان الميزان قد اختل. ومن أفتك خدع النفس أن تطمئن حين تجد من يشاركها انفعالها؛ فإذا غضب الإنسان وحده ربما راجع نفسه، أما إذا وجد من يقول له: أنت محق، وأنا معك، فربما تحولت المشاعر إلى جبهة، وصار الخطأ أكثر ثباتاً لأنه وجد جماعة صغيرة تحميه. وهذه آفة لا تخص البيوت؛ فهي في الجماعات والمؤسسات والمجتمعات أشد خطراً، حين يتحول التأيد المتبادل إلى حصانة ضد المراجعة، ويصبح الإنسان مطمئناً لأن حجته قوية، بل لأن حوله من يرددونها.

ولهذا لا يساوي القرآن بين الحق وكثرة أنصاره، ولا بين الباطل وقلة أصحابه؛ فالميزان في ذاته، لا في عدد الواقفين على أحد جانبيه. وقد يقف إنسان وحده في موضع الحق بينما تتكاثر الأصوات في الجهة الأخرى، فلا ينبغي أن يريك قلبه ضجيج العدد إذا كان مستمسكاً بما يرضي الله، لأن السورة تنتقل فجأة من تحالف أرضي محدود إلى سند سماوي هائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾. يا لعظمة هذا الانتقال؛ فما الذي يبقى من ثقل انحصومة حين يكون الله مولى عبده؟ وما قيمة الجبهات إذا كان ميزان الولاية قد حسم جهة النصرة؟ وليست الآية درساً في الاستقواء على الآخرين، بل في تحرير صاحب الحق من رعب الوحدة؛ إذ قد يخسر الإنسان بعض القلوب لأنه تمسك بما يرى أنه واجب، وقد

يبدو وحيداً في موقفه، ولكن المؤمن يتعلم أن الوحدة في ميزان الناس ليست دائماً وحدة في ميزان السماء.

والتوكيد في ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ يملأ المعنى رسوخاً، فكأن السورة تقول إن الحماية الأساسية ليست مستمدة من مهارة بشرية ولا من شبكة علاقات ولا من قدرة على كسب الخصومات، بل من ولاية الله، ومن كان الله مولاه فلا ينبغي له أن يستمد صلابته من ظلم الآخرين أو قهرهم، لأن القوي بالله لا يحتاج أن يكون متجبراً؛ إنما يحتاج أن يبقى ثابتاً في المكان الذي أمره الله أن يقف فيه. وهذه من المفارقات الدقيقة: بعض الناس حين يشعر بأن الحق معه يصبح أغلظ، بينما ينبغي أن يجعله شعوره بمعية الله أكثر عدلاً، لأن الذي يعلم أن الله يكفيه لا يحتاج أن يفرط في الانتقام، ولا أن يبالغ في سحق خصمه، ولا أن يستعرض قوته كل لحظة؛ فهو محفوظ بمولاه لا بعدوانته.

ثم يجيء اسم جبريل عليه السلام: ﴿وَجِبْرِيلُ﴾، ذلك الملك الذي حمل الوحي من السماء إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مقام الرسالة الذي هبط إليه الوحي ليس متروكاً لاضطرابات العواطف البشرية، ثم تتسع الدائرة: ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فيدخل أهل الصلاح في جبهة النصرة الأخلاقية والوجدانية، ثم يبلغ المشهد ذروته: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾. أمام هذه الكلمات تتقلص أحجام كثيرة كما نظنها ضخمة؛ فما أضعف خصومات الأرض إذا قورنت بعالم الغيب، وما أقل حاجة الإنسان إلى أن ينتصر بالصخب إذا كان الحق نفسه متصلاً بنظام أوسع من حسابات الغرف الضيقة، وما أروع أن يعرف المؤمن أن هذا الوجود ليس فراغاً بارداً، وأن طاعة الله ليست فعلاً يتيمماً معلقاً في فضاء لا يراه أحد، بل إن وراء عالم الحس عالماً من الطهر والملائكة والولاية والنصرة لا تدركه الأبصار، وإن المؤمن حين يستقيم مع الله يدخل - على قدر صدقه - في انسجام مع نظام الوجود نفسه.

ولكن هذه الآية لا تمنح أحداً ترخيصاً أن يزعم أن الله معه في كل خصومة يخوضها؛ فكم من إنسان حمل هواه ثم ألبسه ثوب الدين وقال: الله معي، وكم من فريق أعلن نفسه جبهة الحق لمجرد أنه يجيد لغة الحق. إن أول الآية يمنع هذا الغرور؛ لأنها بدأت بالتوبة من ميل القلب، فكأن من أراد أن يستشعر ولاية الله عليه أن يفتش أولاً عن ميل قلبه، وأن

يسأل نفسه بصدق: هل أنا بالفعل مع الحق أم أنني أطلب من الحق أن يكون معي؟ وهذه مسافة فاصلة بين العبودية والهوى؛ العابد يغير موضعه ليلحق بالحق، وصاحب الهوى يحاول أن يغير تعريف الحق حتى يطابق موضعه.

ثم تأتي الآية الخامسة، فتنقل التربية إلى باب شديد الحساسية، وتخطب أمهات المؤمنين بما يحمل شرف القرب وثقل المسؤولية في آن واحد:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾

تقف النفس طويلاً أمام هذه الآية، لأن فيها هدماً رقيقاً وعميقاً لوهم خطير يسكن البشر: وهم الاستغناء عن التزكية بسبب المكانة. فالاقتراب من النبي صلى الله عليه وسلم شرف لا يدانيه شرف في حياة من أدركه، ومع ذلك لا يجعل هذا القرب صاحبه خارج دائرة التربية الإلهية، ولا يمنحه حصانة من المراجعة، بل كلما علت المنزلة عظمت الأمانة. وهذه قاعدة مرعبة ومطهرة في آن واحد؛ فالمكانة الدينية، والعلم، والنسب، والصحبة، والتاريخ المشرق، والعمل الطويل، كلها لا تعفي القلب من أن يظل كل صباح تلهيذاً في مدرسة العبودية، لأن الإنسان لا يتقاعد من تزكية نفسه ما دام فيه نفس يتردد.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدِلَهُ﴾؛ وفي كلمة ﴿يَبْدِلَهُ﴾ صفة لكل وهم يرى نفسه غير قابل للاستبدال. الإنسان يحب أن يشعر أنه ضرورة، وأن المكان ينهار إن غاب، وأن المؤسسة لا تقوم إلا به، وأن القلب الذي يحبه لن يجد بعده أحداً، وأن الدعوة أو المشروع أو الأسرة أو الجماعة معلقة بوجوده، ثم يأتي القرآن ليرد الأشياء إلى حجمها الحقيقي: الله لا يعجزه أن يبدل. وهذه الحقيقة ليست دعوة إلى احتقار الإنسان، بل إلى تحريره من الغرور، لأنك حين تعرف أنك قابل للاستبدال تصبح أكثر امتناناً لموضعك، وأقل استعلاءً بمن حولك، وأكثر خوفاً من أن يتحول الامتياز الذي أُعطيته إلى حجاب يمنعك من رؤية تقصيرك.

وكم يحتاج من يحملون المسؤوليات إلى هذا المعنى؛ مدير يظن أن المؤسسة اسمه، وعالم يظن أن العلم سينطفئ إذا غاب، وكاتب يظن أن الفكرة لن تجد لساناً سواه، وداعية يرى الناس ملكاً لحضوره، وقائد يخلط بين القضية وشخصه، وأب يتصرف كأن أسرته لا تملك معنى خارج سلطته، وكل أولئك يحتاجون أن يسمعون في أعماقهم كلمة: ﴿يُذِلُّهُ﴾. فالله هو الباقي، والأدوار تتغير، والوجوه تعبر، والمناصب تنتهي، والأجيال تأتي، وليس خلودك في ألا يوجد بعدك غيرك، بل في أن تؤدي أمانتك وأنت تعلم أن الفضل لله الذي استعملك فيها.

غير أن روعة الآية لا تقف عند معنى الاستبدال، بل تصف «الخيرية» التي ينبغي للإنسان أن يطلبها في ذاته، وكأن القرآن يفتح أمامنا سلماً متدرجاً في صناعة الشخصية المؤمنة: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾. ليست الخيرية هنا في جمال وجه أو كثرة مال أو جاه اجتماعي أو مهارة في الظهور، وإنما في بنية روحانية كاملة، وهذه إعادة جذرية لتعريف القيمة؛ فالعالم يقيس الإنسان بما يمكن رؤيته وتصوره وتسويقه، بينما الوحي يقيسه بما استقر في علاقته بالله.

﴿مُسْلِمَاتٍ﴾؛ والبداية بالإسلام، بذلك الاستسلام الذي يكسر مقاومة الأنا لحكم الله، فلا يبقى الإنسان في خصومة دائمة مع ربه يريد من الوحي أن يبرر ما يشتهي، بل يدخل في السلم الداخلي: سمعنا وأطعنا. والإسلام بهذا المعنى ليس كلمة هوية فحسب، بل موقف وجودي؛ أن تعرف أنك عبد، وأن إرادتك ليست الإله الأخير في حياتك، وأن الحرية الحقيقية ليست أن تفعل كل ما تريد، بل أن تتحرر من كل ما يستعبد إرادتك عن الله.

ثم ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾؛ لأن الانقياد الظاهر لا يكتمل جماله إلا إذا امتلأ الداخل بالتصديق واليقين، فإذا اجتمع الإسلام والإيمان صار الظاهر والباطن في طريق واحد، ولم يعد الإنسان يطيع بحسده بينما قلبه يجزأ قدميه متشاقلاً في الجهة الأخرى. والإيمان هو أن يصبح الغيب حاضراً في القرار، وأن يكون الله والجنة والحساب والوعد والوعيد حقائق فاعلة لا معلومات مؤجلة في الذهن؛ فكم من إنسان يعرف العقيدة ولكنه يتصرف لحظة الاختيار كما لو لم يكن هناك إلا السوق والناس واللحظة الراهنة.

ثم ﴿قَاتِنَاتٍ﴾؛ والقنوت يحمل معنى دوام الطاعة والخضوع، وكأن الخيرية لا تبني على ومضة عابرة من الحماس، بل على استقرار طويل في مقام الطاعة. ليس المهم أن تشتعل ليلة ثم تنطفئ شهوراً، ولا أن تبكي في لحظة ثم تعود الحياة فيك إلى مسارها القديم، وإنما أن تتحول العبودية إلى هيئة مستقرة في الشخصية، وأن يصبح الوفاء لله عادة القلب الكبرى، فالثبات هو المعجزة الهادئة التي لا ينتبه لها الناس؛ أن تستيقظ كل يوم وفيك قابلية أن تبدأ من جديد، وأن تظل تحرس الصلة حتى بعد أن تبرد حرارة البدايات.

ثم ﴿تَائِبَاتٍ﴾؛ وما أبدع أن تأتي التوبة في قائمة صفات الخيرية، فكأن القرآن يعلن أن من صفات الإنسان الأفضل أنه كثير الرجوع، لا أنه يدعي أنه لم يخطئ. التوبة ليست وصمة في صحيفة الصالح، بل إحدى أجمل صفاته، لأن صاحب القلب الحي يلتقط غباره باستمرار وينفضه، ولا يترك طبقات الخطأ تراكم حتى تحجبه عن النور. والطامة ليست أن يزل الإنسان، بل أن يفقد حساسية العودة، وأن يتصالح مع المسافة التي نشأت بينه وبين الله حتى لا تعود تؤلمه.

ثم ﴿عَابِدَاتٍ﴾؛ فالطريق ليس أخلاقاً اجتماعية مجردة من الصلة بمصدرها، وإنما عبادة، وتذلل، وصلاة، وذكر، ومحبة، وخوف، ورجاء، وانحناء للروح أمام خالقها. والعبادة هي إعادة الإنسان كل يوم إلى حجمه الصحيح؛ لأنه حين يكبر في عين نفسه يصغره السجود، وحين تمتلئ روحه بضجيج الدنيا يأخذه الذكر إلى الصمت الذي يسمع فيه حقيقة وجوده، وحين تنوزع قواه في المطالب تعيده الصلاة خمس مرات إلى المركز.

ثم ﴿سَائِحَاتٍ﴾، وقد فسرت السياحة هنا عند أهل التفسير بالصيام، وقيل في دلالتها ما يتصل بالسير في الطاعة، وفي الصوم معنى عجيب من معاني السياحة الروحية؛ فالإنسان يغادر به أرض الشهوة المألوفة دون أن يتحرك من مكانه، ويسافر من سلطان الجسد إلى رحابة الروح، ويكتشف أنه قادر أن يرى الماء أمامه فلا يشرب، والطعام قريباً فلا يمد يده، لا لأن الأشياء صارت مكروهة، بل لأن هناك إرادة أعلى من رغباته. والصوم بذلك تدريب على أعظم قضية في سورة التحريم كلها: من يملك القرار الأخير في داخلك؟ أهى الرغبة، أم العادة، أم رضا الناس، أم أمر الله؟

ثم تختم الأوصاف بقول الله: ﴿ثِيَابٌ وَأَبْكَارٌ﴾ ، وفيه إشعار بأن معيار الفضل الذي سبق لا يحتكره طور اجتماعي واحد من أطوار المرأة، ولا قيمة المرأة محصورة في كونها بكرًا أو ثيبًا، وإنما الوصفان يأتیان بعد السلسلة الإيمانية الطويلة التي صنعت جوهر الخيرية: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والتوبة، والعبادة، والسياسة. كأن القرآن يضع الخصائص الاجتماعية في مكانها بعد أن يضع الخصائص الروحية في الصدارة، بينما تخلط المجتمعات كثيراً بين ما هو عارض وما هو جوهر، فتمنح الإنسان قيمته من حالته أو مظهره أو تصنيف الناس له، ويرآي الوحي ليقول: القيمة الأعمق فيما بينك وبين الله.

والآية، مع ما فيها من تحذير، لا ينبغي أن تقرأ بعيداً عن التكریم الثابت لأهات المؤمنين ومكانتهن في الأمة، بل إن شدة التربية نفسها من شرف القرب؛ فالبیت الذي ينزل فيه الوحي لا يمكن أن يترك لاختلالات النفس الصغيرة أن تنمو فيه بلا تصحيح، لأن ما يقع داخله سيصبح تعليماً للأمة إلى آخر الزمان. وهكذا تتحول حادثة أسرية محدودة في وقتها إلى مرآة تربوية لا تزال الأجيال تتقف أمامها: لا يغرك قربك من الصالحين، ولا يغرك موقعك، ولا تغرك محبة الناس، ولا تظن أن تاريخك يمنع قلبك من الميل، ولا تجعل انتماءك بديلاً عن تركيتك.

ومن هنا يتكشف خيط بالغ الجمال يصل الآيات بعضها ببعض؛ ففي أول السورة كان الخلل مرتبطاً بابتغاء مرضاة البشر، ثم جاء التذكير: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَا كُفْرًا﴾ ، ثم جاء كشف السر باسم ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ، ثم جاء هنا توجيه القلب إلى التوبة، ثم تكررت الولاية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكَ﴾ ، ثم جاءت صفات البديل كلها أوصاف عبودية. وكأن السورة تعمل بهدوء على نقل مركز الثقل في النفس من الإنسان إلى الله؛ من ماذا يريد الآخرون مني؟ إلى ماذا يريد الله مني؟ من كيف أحافظ على موضعي؟ إلى كيف أحافظ على قلبي؟ من هل سأستبدل؟ إلى هل أنا أهل للأمانة التي بين يدي؟ ومن كم يحبني الناس؟ إلى كم في قلبي من الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة؟

وعند هذه النقطة تبدأ سورة التحريم في الخروج من البيت النبوي إلى كل بيت؛ فقد علمتنا حتى الآن أن العلاقات لا تصلح إذا غاب عنها ميزان الله، وأن السر أمانة، وأن التغافل حكمة، وأن القلب قد يميل، وأن باب التوبة مفتوح، وأن التظاهر البشري لا يغير

الحق، وأن الله مولى من استمسك به، وأن المنزلة لا تعفي أحداً من التزكية. لكن السورة ستأخذ الآن خطوة أشد رهبة وأوسع مدى، إذ ستلتفت إلى المؤمنين جميعاً وتضع في أعناقهم مسؤولية تتجاوز إصلاح النفس منفردة إلى إنقاذ البيت كله، وستنقلنا من نار الخلافات الصغيرة التي قد تشتعل بين البشر إلى النار الكبرى التي ينبغي أن يصبح كل بيت مؤمن في حالة نجاه منها؛ وهناك ستأتي الصيحة التي لو سكنت في قلب أب وأم وزوج وزوجة لأعادت تعريف التربية كلها: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

### الفصل الثالث

حين تصبح النجاة مسؤوليةً عائليةً ويولد النور من التوبة

تأملات في الآيات السادسة والسابعة والثامنة من سورة التحريم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

هنا تخرج سورة التحريم من خصوصية البيت النبوي إلى رحابة الأمة كلها، وكأن الحادثة التي بدأت في غرف البيت الأول للإسلام لم تكن إلا باباً أراد القرآن أن نعبر منه إلى معنى أوسع: إن البيت ليس مكاناً للسكن وحده، بل ميدان نجاة، وإن الأهل ليسوا مجرد أشخاص نشاركهم الطعام والاسم والسقف والذكريات، وإنما أرواح حملنا الله تجاهها قدرًا من المسؤولية، وإن المحبة التي لا تفكر في مصير من تحب محبة ناقصة مهما أغدقت من الطعام والثياب والهدايا. وبعد أن حدثتنا السورة عن رضا الأزواج، وعن السر، وعن ميل القلب، وعن التوبة، وعن الاستبدال، يأتي النداء العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكأن الإيمان الذي استقر في القلب لا يجوز أن يبقى تجربة فردية مغلقة، بل ينبغي أن يمتد نوره إلى البيت، لأن من أصدق دلائل الإيمان أن يقلق الإنسان على آخرتهم كما يقلق على دنياهم، وأن يسأل عن سلامة قلوبهم كما يسأل عن صحة أجسادهم، وأن يخشى عليهم من النار كما يخشى عليهم من المرض والفقر والضياع.

﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، والبداية بالنفس بالغة الدلالة؛ فالإنسان الذي يريد إنقاذ غيره ولا يعمل على إنقاذ نفسه قد يتحول وعظه إلى ضجيج لا روح فيه، وأقوى تربية يراها الأبناء ليست الكلمات التي يسمعونها، وإنما الإنسان الذي يشاهدونه أمامهم. قد تقول لولدك مئة مرة: لا تكذب، ثم يراك تكذب في معاملة واحدة فتأكل تلك اللحظة كثيراً من مواعظك، وقد تحدّثه عن الصلاة ثم يراك يثقل عنها، وتطلب منه ضبط غضبه ثم يرى البيت يرتجف إذا غضبت، وتنهيه عن التعلق بالدنيا ثم يسمعك لا تتحدث إلا عن المال والمكانة والمظاهر؛ فالقدوة ليست إضافة جمالية إلى التربية، بل هي متنها الخفي الذي يقرأه الأبناء في كل ساعة. ولهذا بدأ القرآن بالنفس، أصلح موضع النار فيك قبل أن تتحدث غيرك عنها،

وأطفى أسباب الاحتراق في قلبك، واضبط شهوتك وغضبك ولسانك وبصرك وعلاقتك بالله، لأن أهل بيتك يتربون بما أنت عليه أكثر مما يتربون بما تقول إنهم ينبغي أن يكونوا عليه.

ثم قال: ﴿وَأَهْلِكُمْ﴾، فالإيمان لا يعرف الفردية الباردة التي يقول فيها الإنسان: نفسي نفسي، وليذهب الباقون إلى مصائرهم؛ بل يوقظ فيه حس الرعاية، ويجعله يحمل في قلبه خوفاً نبيلاً على الذين أعطاه الله قربهم. وهذه الرعاية ليست استبداداً دينياً، ولا تحويل البيت إلى محكمة، ولا مطاردة للناس في خواطيرهم، وإنما هي حب مسؤول؛ تعلم بالحكمة، وتذكير بالرفق، وقدوة بالعمل، ودعاء في الغيب، وصبر على بطاء التغيير، وحراسة من الأبواب التي تفسد الفطرة من غير أن يتحول البيت إلى ثكنة. إن بعض الآباء يفهمون ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ﴾ كأنها أمر بالصراخ، بينما أول معنى للوقاية أن تبني في الإنسان مناعة داخلية تجعله يعرف الخير حتى حين لا تكون وراءه، وأن تحببه إلى الله بدل أن تجعل علاقته بالدين مرتبطة بخوفه منك، وأن تغرس فيه ضميراً يرى الله لا عيناً لا تتحرك إلا حين تراها.

والوقاية أعمق من العلاج؛ فأنت لا تنتظر النار حتى تشتعل ثم تبحث عن الماء، وإنما تعرف من أين يمكن أن تأتي الشرارة، وتحرس المنافذ قبل الاحتراق. وفي زماننا أصبحت منافذ البيت أكثر من أبوابه ونوافذه؛ فالإنسان قد يكون جالساً بين أهله وجسده في الغرفة بينما روحه تتلقى تشكيلها من شاشة بعيدة، وقد تدخل إلى وعي الطفل أو الشاب في ساعات قليلة من الصور والأفكار والشهوات ما لم يكن يدخل إلى بيت كامل في سنوات، ولذلك أصبحت ﴿قُوا﴾ كلمة تستدعي وعياً جديداً بالتربية، لا يقوم فقط على المنع، بل على بناء عقل قادر على التمييز، وقلب ممتلئ بمعنى الله، وشخصية لها غاية أكبر من الاستجابة لكل ما يلعب أمامها. إنك لا تستطيع أن تغلق العالم كله، لكنك تستطيع أن تجعل في نفس ابنك ميزاناً إذا خرج به إلى العالم عرف كيف يزن الأشياء.

ثم يأتي اللفظ الذي يقطع غفلة القلب: ﴿نَارًا﴾. لا يخفف القرآن الحقيقة لكيلا يزج مشاعرنا، لأن الرحمة الحقيقية ليست أن تخفي عن الإنسان الهاوية، بل أن تدله عليها قبل أن يقع فيها. وكثير من الخطاب المعاصر يريد ديناً بلا رهبة، وآخرة بلا حساب، وإلهاً لا

يطلب من الإنسان شيئاً، ورحمة مقطوعة عن العدل، حتى يصبح الإنسان آمناً من المصير مهما صنع، لكن القرآن لا يرينا على الأماني، بل على التوازن العجيب بين الرجاء والخوف؛ فالله غفور رحيم كما مر في أول السورة، وهو نفسه يخذر من نار لا يمكن للعاقل أن يسمع وصفها ثم يبقى قلبه على غفلته. والخوف القرآني ليس مرضاً يعطل الحياة، بل طاقة أخلاقية توقظها؛ فالإنسان الذي يعرف أن أفعاله ذات عواقب أبدية يعيش أكثر مسؤولية، ويصبح للحظة التي يختار فيها بين الصدق والكذب، والطهر والخيانة، والرحمة والظلم، وزن أكبر من مجرد منفعة عابرة.

﴿وَقُودُّهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾؛ وهنا تنهار كل محاولة لتجميل المشهد، فالنار ليست استعارة أدبية عن الندم، وإنما حقيقة من حقائق الآخرة يخبر بها الله الذي يعلم الغيب، ووقودها ما يشعرك بضخامة الهول واستحالة أن يكون الأمر لعبة لغوية غمر عليها ببرود. وما أغرب أن يسمع الإنسان هذا ثم ينفق أعظم قلقه في أمور صغيرة: كم سأربح؟ ماذا قالوا عني؟ هل ارتفع عدد المتابعين؟ هل حصل فلان على مكانة أكثر مني؟ هل تغيرت صورتي في أعين الناس؟ بينما هناك سؤال أكبر بكثير ينتظر في نهاية الطريق: أين أمضي بعد الموت؟ إن القرآن لا يحتقر الدنيا، ولكنه يرفض أن تتحول إلى أفق نهائي، ويعيد ترتيب أحجام المخاوف في النفس حتى لا تصبح خسارة مصلحة أشد عند الإنسان من خسارة مصيره.

ثم يزيد المشهد هيبة: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ﴾. نحن كثيراً ما نخترل صورة الملائكة في الرقة والجمال، لكن القرآن يعرفنا أن منهم من خلقه الله لمقام الشدة في تنفيذ أمره، فلا عاطفة بشرية تعطل الحكم، ولا مجاملة تؤخره، ولا ضعف يصيبهم أمام من استحق العقوبة. وهذه صورة تزرع في القلب معنى خطيراً: المرحلة التي يمكن فيها التراجع هي الآن، والموضع الذي تعمل فيه التوبة هو هذه الحياة، أما إذا وصل الإنسان إلى دار الجزاء فقد انتهى زمن الصناعة وبدأ زمن النتيجة. ولذلك فإن من أعظم أوهام النفس أن تؤجل الرجوع وهي تظن أن الزمن مادة لا تنفذ؛ تقول: سأصلح قلبي لاحقاً، سأصلي لاحقاً، سأقطع هذه المعصية حين أهدأ، سأعتذر حين تسمح الظروف، سأرد المظلمة في وقت آخر، حتى يعتاد القلب عبارة «لاحقاً» ويجعل منها قبراً دفن فيه أجل إمكاناته.

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ وفي ذكر كمال طاعتهم هنا مقابلة صامتة لكنها رهيبية مع الإنسان الذي عصى، فالملائكة قائمون على الأمر لا يخرجون عنه، بينما أعطي الإنسان الإرادة والاختيار ثم ابتلي: أسير طائعاً أم يخرج؟ وكأن الآية تسألنا في عمقها: لماذا يكون الكون من حولك قائماً على الطاعة وتريد أنت وحدك أن تبني حريتك على التمرد على خالقك؟ الشمس في مسارها، والأرض في مدارها، والملائكة في أمرهم، وقوانين الخلق كلها تجري بمقادير، ثم يأتي الإنسان الصغير في هذا الملك الهائل فيتوهم أن عزته في أن يرفض الأمر الذي به نجاته. والعبودية ليست إذلالاً للإنسان، وإنما إدخاله في انسجام الوجود كله مع ربه، وحين يعصي لا يصبح أكثر حرية بقدر ما يصبح أكثر اضطراباً، لأنه يصادم المعنى الذي خلق له.

ثم يأتي مشهد الآخرة مباشرة، فلا تترك السورة مسافة تسمح للخيال أن ينسى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ما أشد هذه الجملة: ﴿لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ﴾؛ لأن الإنسان بطبيعته يعيش مع شعور خفي أن الاعتذار ممكن دائماً، وأن باب التدارك لا بد أن يبقى مفتوحاً، لكنه هنا يقف في يوم انتهى فيه زمن الاعتذار المؤثر، لا لأن الله لا يعلم أعدارهم، ولا لأن رحمته نقصت، تعالى الله عن ذلك، وإنما لأن دار التكليف قد أغلقت أبوابها وأصبح الإنسان أمام حصاد ما زرع. وهنا تتضح قيمة اللحظة التي نحن فيها الآن؛ ما دمنا نستطيع أن نقول: يا رب أخطأت فاغفر لي، فنحن نعيش في نعمة لا نعرف حجمها، وما دمنا نستطيع أن نقول: يا رب ونصلح علاقة، ونغلق باب معصية، ونقوم في الليل بركعتين، وننزع من القلب حسداً، ونخرج مالاً لاحتاج، فباب التغيير لم يغلق بعد.

ولعل أكثر ما يربع في هذه الآية أنها لا تقول إنهم يعاقبون على مجهول، بل: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالحياة تحول إلى مادة للآخرة، والأعمال التي نطن أنها تمر وتختفي لا تختفي حقاً، بل تنتقل من زمن الفعل إلى زمن الجزاء. الكلمة التي قلتها انتهى صوتها، لكن أثرها لم ينته، والنظرة عبرت في ثانية، لكن معناها لم يسقط من ميزان الله، والظلم قد نسيه صاحبه منذ سنوات، لكن المظلوم لم ينسه ورب المظلوم لم يغب عنه

شيء.. وهذه الرؤية تجعل الإنسان أكثر انتباهاً للتفاصيل؛ لأن الآخرة لا تبني فقط من أحداث كبيرة يراها الناس، بل من آلاف الاختيارات الصغيرة التي نضع بها أنفسنا كل يوم.

وإذا كان الكافر يقال له يومئذ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾، فإن الآية التالية تأتي للمؤمن في الدنيا لتقول له بلسان المعنى: اعتذر الآن، ارجع الآن، تطهر الآن، فإن الباب مفتوح، ولهذا يأتي النداء الثاني كأنه نهر رحمة بعد مشهد النار:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يا لعظمة الانتقال من ﴿نَارًا﴾ إلى ﴿تَوْبُوا﴾؛ فالقرآن لا يريك الهاوية ثم يدفعك إليها، بل يريكها ثم يفتح إلى جوارها طريق النجاة، ولا يحدثك عن الذنب ليحبسك في عاره، وإنما يقودك إلى المغفرة. ولعل هذه من أعظم الفروق بين خطاب الله وخطاب البشر؛ فالناس قد يذكرونك بخطئك ليصغروك، أما الله فيذكرك بخطئك كي يطهرك منه، والناس قد يستخدمون ماضيك سلاحاً يمنعونك به من بدء حياة جديدة، أما ربك فيقول لك: ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ﴾، أي إن لك بعد كل ما صنعت طريقاً يعود بك إليه، وإن الماضي مهما اسود لا يملك حق إلغاء المستقبل إذا صدقت في الرجوع.

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؛ ليست توبة لسان يردد الاستغفار بينما القلب يعد نفسه بعودة قريبة إلى الذنب، ولا هدية مؤقتة بين الإنسان وشهوته، وإنما توبة صادقة خالصة تصلح ما فسد وتقطع مع طريق المعصية بحسب الاستطاعة. وقد دارت عبارات السلف في «النصوح» حول الصدق والإخلاص والإقلاع والندم والعزم على ألا يعود المرء إلى الذنب، وإذا تعلق بحق العباد فلا يكمل طريق التوبة مع الإصرار على أكل حقوقهم. والتوبة النصوح ليست مطالبة بعصمة بشرية مستقبلية، فالمؤمن قد يضعف بعد توبته، وإنما المطلوب أن يكون صادقاً في اللحظة التي يتوب فيها، لا يخفي في سريره موعداً للعودة؛ فإن غلبته نفسه بعد ذلك عاد إلى الله من جديد ولم يجعل سقوطه دليلاً على أن باب الطريق أغلق.

وهذا المعنى يحرر كثيراً من الناس من اليأس؛ فقد يقول أحدهم: تبت مراراً ثم عدت، فما قيمة توبتي؟ والجواب أن القيمة في أن تظل تعود ولا تحول تكرار السقوط إلى عقيدة في استحالة النهوض. الشيطان لا يهيمه فقط أن تعصي، بل يريد بعد المعصية أن يقنعك أن الرجوع صار نفاقاً، وأنت استهلكك فرصك، وأن الله لن يقبلك؛ فإذا صدقته في هذا فقد انتقل بك من ذنب إلى قنوط، والقنوط أشد تخريباً للقلب. المؤمن قد ينجل من ربه، ويبيك من ضعفه، ويكره تكرار سقوطه، لكنه لا يتهم سعة المغفرة الإلهية، وإنما يتهم عزيمته ويعيد بناءها ثم يطرق الباب مرة أخرى.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ يا لها من صورة مدهشة: سيئات كانت جزءاً من تاريخك ثم يكفرها الله عنك، يحو أثرها بالعفو، فلا يبقى الماضي سيفاً معلقاً فوق رأسك إذا صدقت مع ربك. والإنسان يحتاج إلى هذا المعنى لأن ذاكرته قد تكون أشد عليه من عدوه؛ ينام والذنب إلى جانبه، ويستيقظ وهو يستعيد مشاهد قديمة، ويقول لنفسه: كيف فعلت ذلك؟ كيف وصلت إلى ذلك الموضع؟ فيأتي القرآن ليعطيه تصوراً آخر للذات: أنت لست ذنبك القديم إذا تبت، ولا ينبغي أن تجعل الخطيئة التي خرجت منها اسماً دائماً لك، فالله نفسه يعرض عليك أن يكفرها، فمن أي باب تأتي أنت لتعيد بناء هويتك حول شيء وعدك ربك أن يحوه؟

ثم لا تقف الرحمة عند محو السيئات، بل ينتقل الإنسان من النجاة السلبية إلى الفوز الإيجابي: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. من النار في الآية السادسة إلى الجنات في الآية الثامنة، وبينهما التوبة؛ كأن السورة رسمت خريطة النجاة في ثلاث آيات: اعرف الخطر، ولا تؤجل الاعتذار إلى يوم لا ينفع فيه، ثم عد الآن إلى الله. وهذه هي البلاغة التربوية التي لا تترك القلب أسيراً للرعب ولا مخدراً بالأمان، وإنما تدفعه بين الخوف والرجاء إلى العمل.

ثم يبلغ المشهد جمالاً يكاد يضيء في اللفظ نفسه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾. بعد النار والملائكة الغلاظ وشدة الموقف يظهر النور، وليس نوراً ساكناً، بل ﴿يَسْعَى﴾؛ كأن الإيمان الذي عاش في الداخل سنوات طويلة، والصلاة التي أقامها العبد حين لم يره أحد، والصدقة التي أخفاها، والدمعة التي

سقطت في التوبة، والمجاهدة التي قاتل بها شهوته، كلها تستحيل يوم القيامة إلى ضياء يسير معه حين يحتاج إلى الضوء أكثر من أي وقت مضى. وما أجل أن تكون أعمال الإنسان في الدنيا نوراً مؤجلاً، يزرعه هنا ويحصد إشراقه هناك.

إننا في الدنيا نعرف أنواعاً كثيرة من الضوء: ضوء المصابيح، والشمس، والشاشات، والمدن، لكن الآخرة تعرف نوراً من جنس آخر؛ نوراً متصلاً بالإيمان، يسعى بين أيدي أهله وبأيمانهم، وكأن الله يجعل ما كان معنى باطنياً في القلب حقيقة مرئية في المصير. والذي عاش في الدنيا يبحث عن نور الشهرة قد يجد الشهرة قد انطفأت، والذي أضاء اسمه في وسائل الناس ربما لا يجد من ذلك الضوء شيئاً هناك، أما من أضاء الله قلبه بالإيمان ولو عاش مجهولاً في زاوية من الأرض، فإنه يحمل معه نوراً لا تصنعه عدسات الدنيا ولا تطفئه وفاة صاحبه.

ومع هذا النور كله لا يغتر المؤمنون، بل يقولون: ﴿رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾. وهذه من أعجب صور العبودية؛ حتى حين أضاء النور لم يقولوا: كفنا، ولم ينظروا إلى من حولهم بإعجاب، وإنما رأوا حاجتهم إلى تمامه. المؤمن الحقيقي لا تغره بدايات النور، لأنه يعرف أن الطريق لا ينجو فيه إلا بفضل الله إلى آخر خطوة؛ قد يكون عندك علم، لكنك تقول: أتمم لي نور العلم بالإخلاص، وقد يكون عندك عبادة فتقول: أتممها بالقبول، وقد يكون عندك صدق فتقول: أتممه بالثبات، وقد يكون عندك عمر طويل من الخير فتقول: أتممه بحسن الخاتمة. وما أخطر أن يظن الإنسان أن بعض النور الذي عنده يمنحه ضماناً ذاتياً؛ فإن النور نفسه عطية تحتاج إلى حفظ الله.

﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾؛ حتى وهم في ذلك المشهد ومعهم نور الإيمان لا يفارقهم شعور الافتقار إلى المغفرة، لأن المؤمن كلما عرف ربه أكثر عرف قدر تقصيره أكثر، فلا يصبح العمل سبباً للعجب، بل سبباً لازدياد الحياء. وهو لا يقول: يا رب انظر كم فعلت، بل يقول: يا رب اغفر لي، لأن أعمالنا مهما بلغت لا تحيط بحق الله علينا، ولأن النجاة في النهاية ليست أجراً ميكانيكياً تستحقه النفس بكبرياء، وإنما فضل ورحمة وقبول من الكريم سبحانه.

ثم تختم الدعوة بما يفتح المستحيل كله أمام الرجاء: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قادر أن تحول قلباً قاسياً إلى قلب خاشع، وأن ترد غارقاً في المعصية إلى طريق الأولياء، وأن تصلح بيتاً ظن أهله أن خرابه قد اكتمل، وأن تخرج من إنسان محطم روحاً جديدة، وأن تبدل ظلمات متراكمة بنور يسع بين يديه. ولهذا فإن التوبة في القرآن ليست مشروع الإنسان وحده، بل التقاء ضعفه بقدرة الله؛ أنت تأتي إليه بخطوة الاعتراف والرجوع، ثم تعمل فيك رحمته بما لا تستطيع أن تصنعه بنفسك.

وعند التأمل في هذه الآيات الثلاث يبدو كأن السورة قد نقلتنا عبر رحلة كاملة من الاحتراق إلى الإشراق: ﴿نَارًا﴾ في أول المشهد، ثم ﴿لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ﴾ في لحظة انغلاق الفرصة، ثم يعود بنا القرآن إلى حاضرننا قبل أن يصل ذلك اليوم فيصيح: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، ثم يحو الله السيئات، ثم تفتح الجنات، ثم يتحول الطريق إلى نور يسع. وبين النار والنور كلمة واحدة إذا صدقت غيرت المصير: التوبة.

ولعل في ترتيب السورة سرّاً تربوياً شديداً الجمال؛ فقد بدأت بقضية صغيرة في ظاهرها داخل بيت، ثم كشفت أنها متصلة بالقلب، ثم بالقلب انتقلت إلى التوبة، ثم حملت المؤمن مسؤولية أهله، ثم أوقفته أمام النار، ثم فتحت على الجنة والنور. وكأن القرآن يعلننا أن الآخرة لا تبدأ يوم القيامة فقط؛ بذورها تبدأ الآن، في الطريقة التي نتعامل بها مع زوجتك، وفي السر الذي تحفظه، وفي الميل الذي تصلحه في قلبك، وفي ولد تربيته، وفي ذنب ثوب منه، وفي قرار صغير قد لا يراه أحد لكنه يقرر مقدار الضوء الذي ستجده أمامك حين تنطفئ جميع أضواء الأرض.

وسوف تمضي السورة بعد هذا النور إلى لهجة أخرى من الحزم، فتواجه العناد والكفر والنفاق، ثم تختم بأربعة نماذج نسائية من أبلغ ما يمكن أن يصوغ به القرآن ميزان القرب والبعد من الله؛ امرأتان عاشتا في بيتي نبين فلم ينفعهما القرب الجسدي من النبوة حين غاب الإيمان، وامرأة عاشت في بيت طاغية فلم يمنعها ظلام القصر من أن ترى طريق الجنة، ومريم ابنة عمران التي صانت نفسها وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين. وعند تلك النماذج سيكتمل البناء الكبير للسورة: ليس السؤال أين تعيش، ولا

بمن تُتصل، ولا ما اسم البيت الذي تنتمي إليه؛ السؤال الأعظم دائماً هو: أين يقف قلبك  
من الله؟

## الفصل الرابع

حين تسقط حصانة القرب ويصبح الموقف هو النسب الحقيقي

تأملات في الآيتين التاسعة والعاشرة من سورة التحريم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

بعد ذلك المشهد المضيء الذي ختمت به الآية السابقة، حيث المؤمنون يسير نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وهم يتضرعون إلى ربهم أن يتم لهم نورهم ويغفر لهم، تنعطف السورة فجأة إلى ميدان آخر لا يسمح للقارئ أن يتوهم أن الإيمان رقة مجردة من القوة، أو أن التوبة تعني ذوبان الحدود بين الحق والباطل، أو أن الرحمة التي فتحت أبوابها للعائدين تعني أن الرسالة لا تعرف الحزم أمام العناد الذي تحول إلى مشروع لصد الناس عن الله؛ فالقرآن يجمع في بناء الشخصية المؤمنة بين قلب يبكي من خشيته، وضير يتوب من زلته، وروح ترجو رحمته، وموقف يشتد حين يصبح الحق نفسه مهدداً، ومن هنا جاء النداء من جديد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ولكن السياق هذه المرة ليس سياق بيت وأسرار ومشاعر، وإنما سياق مواجهة للعداوة الظاهرة والخفية: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

ولفظ الجهاد هنا أوسع من أن يحبس في صورة واحدة؛ فمواجهة الكفر والنفاق تجري بما يقتضيه المقام ووفق شرع الله وسلطان الدولة وأحكامه، وقد تكلم المفسرون في اختلاف صورة التعامل مع الكفار والمنافقين، لأن المنافق يعيش في الظاهر داخل المجتمع المسلم وتكون مواجهته بالهجة وإقامة الحق وكشف الباطل والسياسة الشرعية المناسبة لحاله، بينما للكفر المحارب أحكامه المعروفة في أبوابها، ولذلك فالمعنى التربوي الذي يطل علينا من هذه الآية قبل كل شيء هو أن المؤمن ليس مطالباً بأن يكون مستسلماً أمام كل عدوان فكري أو أخلاقي أو اجتماعي يقع على الحق، ولا أن يجعل اللين فضيلة في كل موضع حتى إذا صار اللين تضيقاً للأمانة سماه رحمة؛ فالأخلاق القرآنية ليست لوناً واحداً يطل به كل موقف، وإنما حكمة تضع الرحمة في موضعها والحزم في موضعه، وتعرف أن الطبيب الذي يرق للمريض لا يرق للورم الذي يأكل جسده، وأن حبه للإنسان قد يقتضي شدة على المرض الذي يفتك به.

والمثير في ترتيب السورة أن الأمر بالحزم يأتي بعد صفحات من إصلاح الداخل، وكأن القرآن يعلمنا أن أخطر من يرفع راية المواجهة هو من لم يجاهد اضطرابه الداخلي بعد؛ فقبل أن يقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ كانت السورة قد مرت على التوبة، وميل القلب، وحفظ السر، وتحلة الأيمان، ووقاية النفس والأهل، والنور والمغفرة، وفي هذا درس شديد الأهمية لكل من يريد مواجهة الباطل: لا تجعل معركتك الخارجية ستاراً تخفي خلفه خراب نفسك، ولا تكن شديداً على انحرافات العالم بينما أنت متسامح إلى حد الغفلة مع انحرافات قلبك، لأن القرآن الذي يأمرك أن تقاوم الباطل خارجك هو نفسه الذي أمرك قبل قليل أن تتوب من الميل الذي وقع داخلك. وقد يكون من أسوأ أشكال التدين أن يتحول الإنسان إلى عين لا ترى إلا أخطاء الآخرين؛ يشتعل غضبه أمام فساد المجتمع، لكنه لا يغضب من كبره، ولا من حسده، ولا من ريائه، ولا من خيانة صغيرة استوطنت قلبه، وكأن الله كلفه بإصلاح الكرة الأرضية وأعفاه من إصلاح نفسه.

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ليست أمراً بالقسوة العمياء، فالنبي الذي يوجه إليه هذا الأمر هو نفسه الذي وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو الذي قام مشروعه كله على رحمة الخلق وهدايتهم، وإنما الغلظة هنا صفة موقف حين تحتاج الحدود إلى وضوح، وحين يصبح التهاون تشجيعاً للعدوان، وحين يحاول النفاق أن يستثمر سماحة المجتمع ليهدمه من داخله. وهناك فرق بعيد بين قوة أخلاقية تضبطها الشريعة وبين قسوة نفسية تجد لذتها في إيذاء الآخرين؛ الأولى تنبع من المسؤولية، والثانية تنبع من مرض القلب، والأولى تقف عند حد الحق، والثانية تبحث دائماً عن المزيد من الانتقام. ولذلك لا يجوز أن تُستدعى هذه الآية ذريعةً للفوضى الفردية أو العدوان على الناس أو الاعتداء عليهم؛ إنما هي جزء من خطاب شرعي له أحكامه وضوابطه وسياقاته، وما يبقى للفرد منه في باب تركية النفس هو ألا يحول اللين إلى ذوبان، وألا يجعل الخوف من اتهام الآخرين له بالقسوة سبباً في التخلي عن وضوح الحق.

فالإنسان المعاصر يعيش ضغطاً هائلاً ليكون مقبولاً في كل الاتجاهات، وربما أصبح «عدم إزعاج أحد» عند بعض الناس أعلى من صدق الكلمة، فيخفون الحق حتى لا يبقى

منه إلا ما لا يعترض عليه أحد، ويعيدون صياغة مبادئهم كلها تغيير مزاج الجمهور، ويعتدرون عن ثوابهم قبل أن يسألهم أحد عنها، ثم يسمون ذلك حكمة وافتحاشاً، بينما الحكمة شيء آخر، لأنها تحسن عرض الحق ولا تتخلى عنه، وترفق بالإنسان ولا تكذب عليه، وتختار أجمل الألفاظ دون أن تفرغ المعنى من مضمونه. إنك تستطيع أن تكون رحيماً وواضحاً في وقت واحد، وأن تحب الهداية للناس دون أن تقول عن الباطل حقاً من أجل محبتهم، وأن تحفظ كرامة المخالف دون أن تجعل مخالفتك له مجرد فارق في الذوق إذا كانت المسألة في ميزان الوحي حقاً وباطلاً.

ثم يجيء المصير: ﴿وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وكلمة «المأوى» تلفت النظر؛ فالمأوى في الاستعمال موضع يرجع إليه الإنسان ويستقر، لكنه هنا يتحول إلى صورة ثقيلة: أي مأوى هذا الذي هو النار؟ إن الإنسان في الدنيا يبحث دائماً عن مأوى، عن بيت، عن وطن، عن صدر يحبه، عن فكرة يطمئن إليها، عن جماعة ينتمي إليها، غير أن أكبر سؤال ليس أين تأوي قدمك في الدنيا، بل إلى أين تأوي روحك في النهاية. قد يملك الإنسان قصرًا ولا يملك مأوى آمناً بعد الموت، وقد يعيش مؤمن في غرفة ضيقة ثم تكون جنات الخلد مأواه، وهكذا يقلب القرآن مقاييس السكن كلها؛ فما قيمة المكان الذي تقيم فيه ستين سنة إذا كان الطريق منه ينتهي إلى بُئس المصير، وما ضر ضيق الدنيا من عرف أنه مسافر إلى دار لا خوف فيها ولا فناء؟

وهنا، بعد أن ذكرت السورة الكفر والنفاق ومآلهما، تنتقل إلى أمثلة تجعل قضية الإيمان محسوسة في أشخاص عاشوا قريباً جداً من النبوة ثم لم يغن عنهم هذا القرب شيئاً، لتبدأ واحدة من أقوى عمليات تحطيم الأوهام الاجتماعية والدينية في القرآن:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَظَنَّتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾

لو أراد إنسان أن يبحث عن أقرب مكان جسدي يمكن أن يوجد فيه إلى النبوة، فإذا سيكون أقرب من بيت نبي؟ وماذا سيكون أقرب من صحبة العمر داخل المنزل، ومن رؤية تفاصيل الصدق والخشوع والدعاء والعبادة، ومن مشاهدة الإنسان الذي يكلمه الوحي

وهو يأكل ويجلس وينام ويدعو ويصبر؟ ومع ذلك يضع القرآن أماناً امرأتين عاشتا هذه المسافة القريبة جداً من نبين كريمين، نوح ولوط عليهما السلام، ثم يخبرنا أن ذلك كله لم يصنع لهما نجاة؛ لأن النجاة لا تنتقل بالاحتكاك، والإيمان لا يورث بمجرد المجاورة، والهداية ليست حرارة تنتقل من جسد إلى آخر إذا اقترب منه، وإنما موقف للقلب من الله.

وهذه الحقيقة تهدم وهماً يتكرر في كل زمان: أن الإنسان يستطيع أن يستعبر دينه من غيره. ابن العالم قد يتوهم أن علم أبيه رصيد له، وزوجة الصالح قد تظن أن صلاح زوجها يخفف عنها عبء تزكية نفسها، وعضو الجماعة الصالحة قد يشعر أن انتماء وحده شهادة نجاة، وطالب الشيخ قد يتكى على اسم أستاذه، وإنسان يعيش في بيئة متدينة قد يظن أن الهواء الذي تنفسه فيها يكفي، لكن القرآن يأخذ أقصى مثال يمكن تخيله ويقول: امرأة نبي، ثم امرأة نبي، ثم لا نجاة إذا غاب الإيمان. فإذا كان اسم نوح ولوط عليهما السلام لم يغن عن أقرب الناس إليهما شيئاً، فبأي اسم آخر تنوهم أن الإنسان يمكن أن ينجو؟

﴿كَاتَمَتِ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾، وتأمل هذه الطريقة العجيبة في وصف النبیین: لم يقل تحت نبين فقط، بل ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾، فكأن العبودية هي التاج الذي يوضع على أعلى رؤوس البشر، والصلاح هو الوصف الذي ينبغي أن يبقى في مركز نظرنا إليهم. فالنبوة نفسها لا تخرج الإنسان من مقام العبودية لله، بل تزيد تحقيقاً لها، وكلما ارتقى العبد في مراتب الاصطفاء كان أكمل افتقاراً إلى ربه؛ وفي هذا هدم آخر لوهم بشري قديم يخلط بين تعظيم الصالحين وبين منحهم شيئاً من خصائص الربوبية أو جعلهم وسائط حتمية في النجاة. النبي عبد، والصالح عبد، والعبد لا يملك لغيره من الله شيئاً إلا ما أذن الله به، والنجاة في النهاية لا تصدر من خزائن البشر مهما عظمت منازلهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿نَفَاتَاهُمَا﴾، وهنا ينبغي للقارئ أن يقف بأدب العلم قبل أن يسمح لخيله أن يذهب إلى ما لا يليق بمقام النبوة؛ فقد قرر أهل التفسير أن الخيانة هنا لم تكن خيانة فراش، ولم تكن فاحشة جنسية، وحاشا أن يراد ذلك في هذا المقام، وإنما كانت خيانة في الدين والموقف والأمانة، إذ لم توافقا زوجيهما على الإيمان وكان من حالهما ما

يناقض ولاء الرسالة. وهذه الدقة مهمة، لأن القرآن حين يذكر بيت النبوة ينبغي أن يُقرأ بما يليق بجرمة الأنبياء، لا بما يغذي فضول الخيال أو إسقاطاته الرخيصة.

لكن لفظ الخيانة، بعد ضبط معناه، يبقى شديداً ومعبراً؛ فالخيانة في جوهرها هي أن يوجد الإنسان قريباً بجسده بعيداً بولائه، وأن يحمل عنوان العلاقة دون أن يحمل حقيقتها، وأن يعيش تحت سقف الأمانة بينما قلبه يعمل في جهة أخرى. وهذا لا يخص الزواج وحده؛ فهناك من يخون فكرة يرفع اسمها، ومن يخون مؤسسة يتقاضى منها راتبه، ومن يخون صديقاً يعرف أسراره، ومن يخون وطناً يتحدث باسمه، ومن يخون ديناً ينتسب إليه حين يحوله إلى شعار ويعيش ضد أخلاقه. والخيانة ليست دائماً انتقال سر أو تسليم معلومة، بل قد تكون فجوة بين الاسم والحقيقة، بين ما تقوله عن نفسك وما تحمله فعلاً في داخلك.

وما أشد الصلة بين هذه الآية وبداية السورة؛ فهناك بدأ الحديث بسر أفشي داخل البيت، ثم جاءت في آخر السورة امرأة نوح وامرأة لوط في سياق الخيانة، وكأن خيط الأمانة يمتد من أول السورة إلى آخرها، ليفهم الإنسان أن البيوت ليست جدراناً فقط، بل مواضع امتحان للولاء والصدق والثقة، وأن الله الذي يعلم السر في البيت النبوي الأول هو نفسه الذي يعلم خفايا بيوت الأنبياء من قبل. وما يحدث داخل العلاقات ليس هامشاً أخلاقياً لا يهتم به الوحي؛ إنه جزء من حقيقة الإنسان أمام الله.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾؛ وهنا تأتي المطرقة الكبرى على صنم الاتكال على البشر. لم يغن نوح عن زوجته، ولم يغن لوط عن زوجته، مع أنهما نبيان صالحان، لأن القرب من الله لا يباع ولا يهدى على هيئة قرابة. وتكاد هذه الآية تعيد تعريف العلاقات كلها: أحب الصالحين، وصاحبهم، وتعلم منهم، وانتفع بقربهم، لكن لا تتخذ قربك منهم بديلاً عن قربك من الله. أنت تستطيع أن تجلس بجوار رجل يملأ كلامه القلوب إيماناً ثم تخرج كما دخلت إذا لم يفتح قلبك، وقد تعيش في بيت يمتلئ بالمصاحف ولا يدخل القرآن حقيقةً إلى نفسك، وقد تحفظ تاريخ أسرة صالحة بكاملها بينما لا تملك أنت ركعتين صادقتين في جوف الليل.

وهذه الحقيقة ينبغي ألا تولد في الإنسان قلقاً يأساً، بل مسؤولية محررة؛ فأنت لست أسير فساد أسرتك كما أنك لست مضمون النجاة بصلاحها. هذه الآية، وإن ضربها الله مثلاً للذين كفروا، تحمل في عمقها وجهاً من وجوه العدالة الإلهية: لا يُدان الإنسان لمجرد أنه عاش بجوار فاسد، ولا ينجو لمجرد أنه عاش بجوار صالح؛ كل روح تدخل على الله بما كسبت. فإذا كان والدك عظيماً فلن يغني عنك تقصيرك، وإذا كان والدك بعيداً عن الله فلن يمنعك ذلك من أن تكون من أوليائه، وإذا نشأت في بيئة مظلمة فليست محكوماً أن تكون ظلاماً، وإذا نشأت في بيت نور فلا تتوهم أن النور انتقل إلى قلبك دون اختيارك.

وهذا هو المعنى الذي ستكمله الآيتان الأخيرتان من السورة بطريقة مدهشة؛ فبعد امرأتين عاشتا في بيتي نبيين ولم ينفعهما شرف المكان لأن كليهما لم يصدقا، ستضع السورة أمامنا امرأة عاشت في بيت أعتى طغاة زمانها، فرعون، ومع ذلك لم يمنعها القصر الملوث بالطغيان من أن تكون مثلاً للذين آمنوا. هناك امرأة لم تتج وهي تحت سقف نبي، وهنا امرأة ستنجو وهي تحت سقف فرعون؛ أي هدم أوضح من هذا لكل عقيدة تعلق المصير بالمكان والنسب والبيئة؟ إن القرآن سيقول لنا عملياً: قد تكون في أقرب مكان إلى النور وقلبك في الظلام، وقد تكون في قلب الظلام وقلبك يرى الله.

ثم يختم هذا المثال المرعب بقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾. ليست هناك معاملة استثنائية بسبب تاريخ الزوجية، ولا باب جانبي لأن الاسم اقترن باسم نبي، وإنما دخول مع الداخلين؛ فحين يصل الإنسان إلى ميزان الله تسقط الامتيازات الوهمية التي عاش بها في الدنيا، ويصبح السؤال عن حقيقة الإيمان والعمل. وكم من إنسان في الدنيا يعيش على لقب؛ ابن فلان، تلميذ فلان، من أسرة فلان، من جماعة فلان، من بلد فلان، من سلالة فلان، ثم يأتي القرآن ليقول إن الألقاب كلها تتراجع في اللحظة التي يواجه فيها العبد ربه منفرداً.

ولعل من أعمق ما تبنيه هذه الآية في النفس أنها تمنع الإنسان من أن يجعل الأشخاص جسراً يهرب به من مسؤوليته الفردية؛ فلا تقل: عائلتي صالحة إذن أنا بخير، ولا تقل: المجتمع كله يفعل ذلك إذن لا بأس، ولا تقل: الشيخ الذي أحبه يراه صواباً إذن لست مسؤولاً عن النظر في الحجة، ولا تقل: حزبي أو جماعتي أو مدرستي الفكرية ستجيب عني؛

فإنه لم يعط أحداً حق حمل قلبك نيابة عنك. أنت الذي تؤمن، وأنت الذي تكفر، وأنت الذي تثوب، وأنت الذي تعصي، وأنت الذي تدخل قبرك، وأنت الذي تقف للحساب. لكن في هذا المعنى نفسه رحمة هائلة لا تقل عن شدته؛ فإذا كانت النجاة لا تورث، فإن الهلاك كذلك لا يورث. لست مطالباً بأن تحمل خطايا بيتك، ولا تاريخ قبيلتك، ولا فساد محيطك، ولا انحراف زمنك وكأنها قدر لا يستطيع قلبك الإفلات منه. لقد استطاعت امرأة فرعون، كما ستقول الآية التالية، أن تبني في داخل القصر الطاغوي بيتاً لها عند الله في الجنة، واستطاعت مريم أن تحفظ قلبها وجسدها في عالم البشر المضطرب، لأن الإنسان في المنظور القرآني ليس مجرد منتج لبيئته؛ فيه سر الاختيار الذي يستطيع به أن يقول «لا» حين يقول كل من حوله «نعم»، وأن يمضي إلى الله ولو كانت الطريق تمر من قلب العزلة.

وهكذا تنتهي الآية العاشرة وقد نزعنا من القلب آخر أوهام الاتكال على القرب، فلا النسب يغني، ولا الصحبة تغني، ولا الزواج من صالح يغني، ولا السكن في بيت نوة يغني إذا لم يوجد في القلب ما يستجيب لله. وقبل أن يتركنا القرآن تحت ثقل هذا المثال، سيفتح أمامنا في الآيتين الأخيرتين نافذتين من أنقى النور النسائي في كتاب الله: امرأة فرعون، التي علمتنا أن الجسد قد يسكن قصر الطاغية والقلب يسكن عند الله، ومريم ابنة عمران، التي جعلت من الطهر والتصدق والقنوت علماً داخلياً لا يستطيع ضجيج الناس أن يقتحمه. وهناك ستكتمل هندسة سورة التحريم كلها؛ من بيت النبي في أولها إلى بيت فرعون في آخرها، ومن امرأة تقرّبها المسافة ولا ينجيها غياب الإيمان إلى امرأة تبعد بها البيئة كل البعد عن الصلاح ثم تنجو بصدق القلب، حتى لا يبقى للقارئ بعد ذلك عذر في أن يعلق مصيره على أحد سوى نفسه وربه.

## الفصل الخامس

حين يعجز القصر عن امتلاك القلب ويصير الطهر وطناً

تأملات في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة التحريم

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

ما أدهش هذا الانقلاب الذي تصنعه السورة في آخرها؛ فبعد امرأتين عاشتا في بيتي نبين فلم ينفعهما شرف القرب حين غاب صدق الإيمان، تأتي امرأة تعيش في بيت فرعون، في قلب القصر الذي تجتمع فيه أسباب الطغيان والكبر والترف والسلطة، ثم يجعلها الله مثلاً لا للنساء وحدهن، بل ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ جميعاً، رجالاً ونساءً، وكأن القرآن يريد أن يحطم في الضمير آخر حجة يمكن أن يتذرع بها الإنسان ليبرر استسلامه لبيئته؛ فلا بيت النبوة يضمن لك الإيمان إن أنت أغلقت قلبك، ولا بيت فرعون يمنعك منه إن أنت فتحت قلبك لله، وبين المثالين تتجلى حرية الروح في أصفى صورها: يمكنك أن تكون قريباً جداً من الصالحين ولا تنتفع، ويمكنك أن تكون محاطاً بالطغيان من كل جهة ثم تصنع في داخلك موضعاً لا يملكه الطاغية، لأن للإنسان أرضاً لا يستطيع أحد أن يحتلها ما دام هو لم يسلم مفاتيحها، وتلك الأرض هي القلب.

وامرأة فرعون لا تقدمها الآية إلينا بوصفها شخصية تنجو من ظرف سيئ فحسب، بل بوصفها إنساناً أعاد ترتيب العالم كله من حوله، ففرعون عند الناس ملك، والقصر قوة، والذهب نجاح، والسلطان أمان، ولكن قلبها رأى وراء هذه الأسماء حقيقتها: طغياناً زائلاً، ونعمة مسمومة إذا فصلت عن الله، وبيتاً واسعاً لا قيمة له إذا كان ساكنه أسيراً للظلم. ولذلك جاء دعاؤها من قلب انقلاب كامل في المعيار: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾؛ إنها تملك بيتاً في الدنيا، ولكنها تطلب بيتاً آخر، وتعيش في قصر يهابه الناس، لكنها ترى أن القصر الذي يخلو من الرضا الإلهي أضيق من ززانة، وأن البيت الحقيقي ليس ما ارتفعت جدرانها واتسعت أروقته، بل ما كان طريقه إلى الله ومقامه عنده.

وتأمل هذا الترتيب المذهل في الدعاء: لم تقل أولاً «بيتاً في الجنة عندك»، وإنما قالت: ﴿عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فكأن «العندية» قبل «البيت»، والقرب قبل المكان، والرضا قبل النعيم؛ إنها لا تطلب الجنة منفصلة عن الله، بل تطلب الله قبل أن تطلب ما عنده، وكأن سر رغبته ليس مجرد الهرب من ألم الدنيا إلى لذة الآخرة، وإنما الانتقال من جوار طاغية إلى قرب رب رحيم، ومن بيئة تضغط على قلبها إلى مقام يكون فيه القلب عند مولاه. وهذه منزلة عالية في فهم العبادة؛ فهناك من يريد النعمة لأنه يحب النعمة، وهناك من يريد الجنة لأنه يخاف النار، وكل ذلك مشروع كريم، لكن أصفى القلوب ترتقي حتى يصبح أعظم ما تريده من الجنة أنها دار القرب والرضا، وأن نهاية الطريق ليست مجرد أشجار وأنهار، بل لقاء بالرحمة التي عبدتها في الغيب.

وفي قولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي﴾ معنى آخر من أعمق معاني الافتقار؛ فهي لا تقول: سأبني، ولا تتحدث بمنطق القدرة الذاتية، وإنما ترفع طلبها إلى الرب: ابن لي. فقد أحاط بها من القوة المادية ما يستطيع بناء أعظم القصور في الأرض، لكنها أدركت أن بناء البيت الأبدي ليس بيد فرعون ولا بيد خزائنه ولا بجنده ولا بنفذه، وإنما بيد الله، وكأنها تعلن أن القدرة التي تخشاها الأرض كلها عاجزة أمام أبسط حاجة أخروية؛ يستطيع فرعون أن يأمر ببناء قصر، لكنه لا يستطيع أن يضع لبنة واحدة في الجنة، ويستطيع أن يملك الجنود، لكنه لا يستطيع أن يمنح قلباً سكينته، ويستطيع أن يقهر أجساداً، لكنه لا يستطيع أن يفتح باباً في السماء.

وهنا تنكشف طبيعة القوة الحقيقية؛ فالقوة ليست دائماً فيمن يملك السوط، بل قد تكون فيمن يستطيع أن يقول للسوط: لن تدخل إلى عقيدتي. وقد يكون الطاغية قادراً على الجسد كله وعاجزاً عن القلب، وهذه أعظم هزيمة يمكن أن تصيبه؛ أن يملك المكان ولا يملك الإنسان، وأن يفرض صوته على القصر كله ثم يجد قلباً واحداً قد خرج من سلطانه تماماً. امرأة فرعون تعلمنا أن الحرية تبدأ من الداخل قبل أن تكون نظاماً خارجياً، وأن الإنسان قد تكون حوله القيود كلها ويبقى فيه موضع حر لا يستطيع أحد أن يدخله إلا بإذنه، وأن أعظم مقاومة للطغيان قد تبدأ بجملة سرية بين عبد وربّه: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

ثم تقول: ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾، فلم تطلب النجاة من شخصه وحده، بل من عمله أيضاً، وهذه دقة تربوية شديدة العمق؛ لأن الإنسان قد يبتعد عن الظالم ويبقى بعض منطق الظالم داخله، وقد يرفض الطاغية لكنه يستعير أساليبه، وقد يهرب من بيئة فاسدة ثم يحمل قيمها معه إلى المكان الجديد، ولذلك كان التحرر الحقيقي مزدوجاً: نجاة من مصدر الفساد، ونجاة من أثره، نجاة من الإنسان، ونجاة من طريقته في التفكير والعمل. وما أكثر الذين يخرجون من ظلم ثم يمارسون صورة مصغرة منه حين يملكون سلطة، لأنهم تخلصوا من الشخص ولم يتخلصوا من «عمله» الذي استقر في وعيهم؛ فالتحرر القرآني أعمق من تبديل الوجوه، إنه تطهير للبيئة الأخلاقية التي أنتجت الظلم أصلاً.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فتتسع دائرة النجاة من الفرد إلى المنظومة، ومن فرعون إلى البيئة التي صنعت له مجالاً للطغيان، أو رضيت به، أو شاركت في ظلمه؛ وهنا يظهر أن الإيمان ليس مجرد رفض شخصي لطاغية بعينه، بل موقف من الظلم نفسه حيثما كان، لأن من يكره الظالم لمجرد أنه ظلمه هو قد يصالح ظلمه إذا وقع على غيره، أما المؤمن فيكره الظلم من حيث هو ظلم، ويعرف أن المشكلة لا تنتهي دائماً بسقوط فرد إذا بقيت النفوس والقيم والبني التي تعيد إنتاجه. ولذلك جمعت في دعائها بين فرعون، وعمله، والقوم الظالمين؛ كأنها تريد أن تخرج كاملة من عالم الطغيان، لا أن تنتقل فقط من موقع إلى آخر داخله.

وفي هذا الدعاء وحده خريطة مذهلة للنجاة: ﴿عِنْدَكَ﴾ هي الجهة، ﴿يَتَا فِي الْجَنَّةِ﴾ هي الغاية، ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ هو التحرر من المستبد، ﴿وَعَمَلِهِ﴾ هو التحرر من منطق الاستبداد، ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هو التحرر من البيئة التي يترعرع فيها الظلم. ولذلك لم يكن غريباً أن يجعلها الله مثلاً للذين آمنوا، لأنها لم تتج فقط بعقيدة أخفتها في قلبها، بل أعادت بتلك العقيدة تعريف العالم المحيط بها كله، حتى صار القصر في عينها شيئاً يمكن أن يترك، وصار رضوان الله شيئاً لا يمكن أن يستبدل.

ويا للفرقة بين هذه المرأة وامراتي نوح ولوط؛ هناك بيتان صالحان وقلبان ضائعان، وهنا بيت طاغية وقلب ناج، وكأن القرآن يريد أن يطرد من الإنسان عبودية الظروف: لا تقل لو كنت في بيت أفضل لكنت أفضل، ولا تقل لو كان زوجي صالحاً لاستقمت،

ولا تقل لو كانت يثني أقل فساداً لكنت إلى الله أقرب، ولا تجعل صعوبة الطريق عذراً لبقاء القلب في مكانه. نعم، للبيئة أثر عظيم، والصحبة الصالحة من نعم الله الكبرى، والإنسان مأمور أن يطلب أسباب الاستقامة، لكن المثال القرآني يقول إن أثر البيئة ليس قدراً يلغي الاختيار، وإن في الإنسان قدرة على أن يحافظ على جذوة الإيمان ولو أحاطت به رياح كثيرة، متى استعان بالله وصدق معه.

ولعل الإنسان الحديث يحتاج هذا المثال من وجه آخر؛ فقد أصبح كثيرون يشعرون أنهم عاجزون أمام «جو العصر»، أمام الثقافة السائدة، وأمام ما تعرضه الشاشات، وأمام ضغط الأصدقاء، وأمام معايير النجاح، فيقول أحدهم: الجميع يفعل، المجتمع هكذا، الزمن تغير، لا يمكن أن تعيش مختلفاً. فتأتي امرأة فرعون من عمق التاريخ لتكسر هذه الحجة؛ ما كان حولها لم يكن مجرد ضغط أصدقاء، بل سلطاناً يزعم الألوهية ويملك أدوات القهر، ومع ذلك قالت روحها: ربي الله. إذاً فالبيئة قد تصعب الإيمان، لكنها لا تستطيع أن تجعل الإيمان مستحيلاً، وقد يتعب القلب في مقاومة المحيط، لكنه إذا وجد ربه وجد مساحة من الحرية لا تصل إليها يد بشر.

ثم تنتقل السورة إلى النموذج الأخير، نموذج من جنس آخر، لا يواجه طاغية في قصر، بل يواجه اختبار الطهر، والاتهام، وثقل الاصطفاء، ووحشة أن يحمل الإنسان أمراً لا يملك للناس تفسيره إلا أن يصدق الله:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ﴾

تأتي مريم عليها السلام في ختام السورة كأنها ذروة هادئة لكل المعاني التي تفرقت فيها: طهر في عالم الفتن، وتصديق أمام ما يعجز العقل عن الإحاطة بكيفيته، وقنوت طويل لا تصنعه اللحظة، وقلب سلم أمره لربه. وما أبدع أن تحتم سورة بدأت ببيت النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة صديقة طاهرة صار جسدها وسمعتها وإيمانها كلها موضع ابتلاء واصطفاء، فكان السورة من أولها إلى آخرها تحرس حرمة البيت والقلب والجسد والسر والإيمان، وتعلبنا أن الداخل الإنساني ليس مساحة مهمة، بل موضع نظر التكليف والتزكية.

﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ والإحصان هنا ليس مجرد امتناع سليبي، بل بناء حصن، ومن مادة الكلمة نفسها نشعر أن الطهر يحتاج حراسة؛ لأن الإنسان لا يحافظ على نقائه بالمصادفة، بل بأبواب يغلقها، وحدود يعرفها، ونظرة يردها، وفكرة لا يسمح لها أن تستقر، وصحبة ينتقياها، ومواضع يتتبعها قبل أن يختبر قوة نفسه فيها. وفي زمن تذوب فيه الحدود بين الخاص والعام، وتدخل الصور إلى العين بلا استئذان، وتحول الأجساد إلى مادة للاستهلاك التجاري، يصبح الإحصان موقفاً حضارياً أيضاً؛ أن يستعيد الإنسان جسده من السوق، وألا يسمح لنظرات الآخرين أن تعرّف له قيمته، وأن يدرك أن الكرامة ليست في أن يكون مرغوباً عند أكبر عدد من الناس، بل في أن يكون مصوناً في ميزان ربه.

والطهر القرآني لا ينظر إلى الجسد بوصفه شيئاً قدراً ينبغي كرهه، بل بوصفه أمانة كريمة ينبغي أن توضع غرائزه في نظام يليق بالإنسان؛ ولذلك كان الإحصان شرفاً، لأن الإنسان حين يحفظ نفسه لا يلغي فطرته وإنما يحررها من الفوضى، والفرق كبير بين القمع والطهر؛ القمع ينكر الطبيعة، أما الطهر فيعرف الطبيعة ويعطيها طريقها المشروع دون أن يسمح لها أن تتحول إلى سيد على الروح. ومريم عليها السلام تبلغ هنا مقام المثال لأنها صانت أمانة الجسد حتى جعل الله ذكر هذا الإحصان جزءاً من خلود سيرتها.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، وهذه إضافة تشريف وخلق بأمر الله، لا تحمل معنى أن الروح جزء من ذات الله تعالى، فالله سبحانه منزّه عن التجزؤ والحلول، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وإنما الروح مخلوقة من خلقه، أضيفت إليه إضافة تشريف، كما يقال بيت الله وناقة الله. وهنا يحسن بالقلب أن يقف عند حدود ما أخبر الله به دون أن يحوّل الغيب إلى مادة لتخيلات لا دليل عليها، لأن من أدب التدبر أن زدّاد بالنص خشوعاً لا أن نحمله ما لم يقل، وأن نفرق بين التأمل الذي يفتح المعنى وبين التكلف الذي يتجاوز حدود البيان.

ثم يقول: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾، وهذا هو المركز الذي قامت عليه مريم: التصديق. لم تكن العظمة في الحدث انخارق الذي ارتبط بها وحده، بل في القلب الذي تلقى أمر الله مصداقاً، لأن الخوارق لا تصنع الإيمان، وإنما الإيمان هو الذي يعرف كيف

يستقبل الخارق دون أن يضل به. والتصديق في القرآن ليس إقراراً ذهنياً بارداً، بل انفتاح الكيان كله على خبر الله؛ أن يكون ما يخبرك الله به أصدق في قلبك من ضغط الحس حين يعارضه، وأن تثق بوعده حين لا ترى بعدُ مقدمات الوعد، وأن تقول للغيب: صدقت، لأن الذي أخبر به هو رب العالمين.

وهذه منزلة يحتاجها الإنسان في عصر يميل إلى اختزال الحقيقة في ما تراه العين وتقيسه الآلة؛ فالقرآن لا يعادي العقل ولا الحس، ولكنه يرفض أن يتحوّل إلى حدود تحبس الوجود كله داخلهما، ويعلم الإنسان أن من وراء المرئي عالماً من أمر الله لا يدركه إلا بخبره الصادق. ومريم عليها السلام كانت في قلب حدث يعجز عن القياس المعتاد، ومع ذلك كان قوامها التصديق، ولذلك لم تكن عظمتها في أنها فهمت كل الحكمة قبل أن تسلم، بل في أنها سلمت لله لأنها عرفت ربها.

﴿وَكَاْنَتْ مِنَ الْقَائِيْنَ﴾ ؛ وهنا تعود الكلمة التي مرّت بنا في الآية الخامسة: ﴿قَائِيَاتٍ﴾، فتشابه أطراف السورة كأن آخرها يعيد صدى وسطها. والقنوت ليس موقفاً عابراً، بل هيئة راسخة من الطاعة والخضوع والدوام، وكأن مريم لم تبلغ مقام المثال بمحادثة واحدة، وإنما بسيرة طويلة من العبودية هيأت قلبها لحمل الامتحان الكبير. وهذه سنة تربوية دقيقة: الاختبارات العظيمة لا تواجه بقوة تُخلق لحظتها دائماً، بل بما راكمه الإنسان قبلها في الأيام الهادئة؛ ركعاته التي لم يرها أحد، ذكره، صدقه، حيائه، صبره، عاداته الصغيرة في الطاعة، كل ذلك يتحول حين تأتي العاصفة إلى مخزون نجاة.

وما بين امرأة فرعون ومريم صورتان مختلفتان للكمال الإيماني؛ الأولى تواجه فساد البيئة والسلطان، والثانية تجسد الطهر والتصديق والقنوت، الأولى تقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، والثانية يصفها الله بأنها ﴿صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾، فكأن الطريقين يلتقيان عند مركز واحد: الله هو المرجع، الله هو الملاذ، الله هو الذي يعاد في ضوء أمره تعريف القصر والجسد والسمعة والخوف والمستقبل. وحين يصبح الله مركز القلب تنهار سطوة السياق، لا يغريك قصر فرعون، ولا يسقطك خوف الناس، ولا تجعل العاصفة الثقافية الطهر مستحيلاً، لأنك تعرف أن هناك معياراً أعلى من الجميع.

وعند ختام السورة يمكننا أن نعود بنظرنا إلى بدايتها فنرى هندسة مدهشة لا تبدو لأول وهلة لمن يقرأ الآيات مفصولة عن بعضها؛ بدأت السورة بسؤال لنبي كريم في شأن ما أحل الله، وبالمدافع الإنساني الرقيق: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، ثم أعادت الميزان إلى الله، وفتحت طريق التحلل من اليمين، ثم دخلت إلى السر والخيانة والتغافل، ثم إلى ميل القلوب والتوبة، ثم إلى ولاية الله، ثم إلى مسؤولية البيت والوقاية من النار، ثم إلى التوبة النصوح والنور، ثم إلى الحزم مع الكفر والنفاق، وأخيراً وضعت أمامنا أربعة نماذج نسائية تتحدد مصائرهما لا بمواقفها الاجتماعية ولا بأسماء أزواجهما، بل بما في القلوب من إيمان أو كفر. وهنا تكتمل الرسالة الكبرى: الإنسان لا ينجو بما حوله، بل بما يقوم في داخله من عبودية لله ثم يصدقه العمل. امرأة نوح كانت في بيت نبي فلم يغن عنها، وامرأة لوط كذلك، وامرأة فرعون كانت في بيت طاغية نفجر قلبها إلى الجنة، ومريم كانت في مقام الابتلاء فثبتت بالتصديق والقنوت. وبهذا تصبح سورة التحريم من أقوى السور في هدم وهم «الضمانات الخارجية»؛ لا بيت، ولا زوج، ولا نسب، ولا بيئة، ولا تاريخ، ولا موقع، ولا قرب من صالحين يكفي وحده، كما أن فساد المحيط لا يملك وحده أن يمنعك من طريق الله.

بل إن السورة كلها تبدو كأنها تبني مفهوماً بالغ الدقة للحرية: الحرية ليست أن يفعل الإنسان ما يشاء، وإنما أن يتحرر من كل ما ينازع الله سيادته على قلبه؛ يتحرر من عبودية رضا الناس في قوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، ومن أسر الكلمة السابقة بتخلة اليمين، ومن سلطان السر والخيانة بالتقوى، ومن ميل القلب بالتوبة، ومن خوف الجهات البشرية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾، ومن غفلة البيت بقوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، ومن أسر الذنب بالتوبة النصوح، ومن ظلمة الآخرة بنور الإيمان، ومن طغيان البيئة بمثال امرأة فرعون، ومن فوضى الجسد بمثال مريم.

وإذا كان ثمة سؤال يبقى بعد آخية من السورة فهو ليس: من حولك؟ بل: من يملك قلبك؟ قد يكون حولك صالحون وقلبك بعيد، وقد يكون حولك المفسدون وقلبك متعلقاً بالسماء؛ وقد يحبك الناس جميعاً وأنت في خسارة، وقد يتركك كثيرون وأنت في ولاية

الله؛ وقد تسكن أوسع البيوت وروحك بلا مأوى، وقد تكون في أضيق مكان وقلبك يقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

وهكذا تنتهي سورة التحريم لا بنهاية قصة، بل ببداية سؤال شخصي لا يستطيع أحد أن يجيب عنه نيابة عن أحد: هل جعلت الله فوق كل مرضاة؟ وهل حفظت الأمانة حين أسر إليك الحديث؟ وهل راقبت ميل قلبك قبل أن يصير انحرافاً؟ وهل تبت حين عرفت؟ وهل حملت أهلك إلى الله بالحب والقدوة والحكمة؟ وهل صنعت في دنياك من الإيمان ما يتحول يوم القيامة إلى نور يسعى بين يديك؟ وهل تستطيع، إن أظلم المحيط كله، أن تقول كما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾؟ وهل تملك من طهر مريم وتصديقها وقنوتها ما يجعلك ثابتاً حين تصبح العفة غربة واليقين امتحاناً؟

ذلك هو السفر الذي تفتحه سورة التحريم في القلب، تبدأ من تفصيلة منزلية صغيرة ثم لا تزال توسع دائرتها حتى تصل بك إلى الجنة والنار، وإلى الحرية والطغيان، وإلى الطهر والخيانة، وإلى الضوء والظلمة، وكأنها تقول لك إن مصير الإنسان الأبدي قد يتشكل في تفاصيل يظنها عابرة: كلمة، وسر، ورضا، وميل، وتوبة، وطريقة تربية، وقرار في ساعة فتنة. وما أصغر اللحظة حين تمر، وما أعظمها حين تستقر في ميزان الله.

فطوبى لقلب لا يمنحه حب البشر جرأة على تجاوز حدود الله، ولا يمنحه قرب الصالحين غروراً، ولا تمنعه بيئة الفساد من طلب النجاة، ولا تجعله الزلّة يأساً من التوبة، ولا يجعله النور مغترّاً عن سؤال تمامه، وإنما يظل منذ أول الطريق إلى آخره يقول بلسان افتقاره: يا رب، أنت مولاي، وأنت العليم الخبير، وأنت القادر أن تكفر السيئات، وأنت الذي تتم النور، وأنت الذي تبني لعبدك بيتاً عندك في الجنة؛ فاجعل قلبي لك، ولا تجعل شيئاً من الدنيا أكبر منك في داخلي.

ة

من أسر البيت إلى حرية القلب، ومن النار إلى النور

عندما تنتهي سورة التحريم، لا نشعر أننا خرجنا من قصة عائلية انتهت فصولها، بل من رحلة عميقة أعادت ترتيب مقاييس كثيرة في النفس؛ فالبيت الذي دخلناه في أول

السورة لم يبق بيتاً خاصاً، والسر لم يبق سرّاً عابراً، والغيرة لم تبق إحساساً طبيعياً بسيطاً، والتوبة لم تبق كلمة تردد بعد الخطأ، والنار لم تبق صورة مؤجلة، والنور لم يبق وعداً بعيداً، لأن القرآن أخذ كل واحد من هذه المعاني وأدخله في هندسة متكاملة للإنسان الذي يريد أن يكون قلبه لله وهو يعيش بين البشر.

بدأت الرحلة من أكثر ما يستطيع أن يستعبد الإنسان برقة: مرضاة من يحب. وليس في الحب نفسه أسر، بل في أن يصبح رضا الآخر معياراً أعلى من الحق، وفي أن يخاف الإنسان فقدان القبول حتى يبدل شيئاً من ميزانه الداخلي. وهنا جاءت الآية الأولى لتعيد ترتيب الكراسي في القلب: البشر محبوبون، لكن الله هو المولى؛ قلوبهم تُراعى، لكن حدوده لا تُنقل من مكانها؛ العلاقات تصان، لكن لا على حساب المرجعية. وبذلك كانت أول حرية تعلبنا إياها السورة هي التحرر من عبودية الرضا البشري، تلك العبودية التي قد لا تظهر في سجود ولا شعيرة، وإنما تظهر في التنازلات الصغيرة التي يقدمها الإنسان حتى لا يخسر صورته في عيون الآخرين.

ثم دخلت السورة إلى السر، فذكرتنا أن الإنسان لا يمتحن فقط في المواقف التي يراه فيها الجميع، بل في الأشياء التي لا يعرفها أحد، وأن الأمانة الحقيقية تتجلى حين تستطيع أن تتكلم ثم تختار الصمت وفاءً، وحين تعلم زلة ثم تختار ألا تحولها إلى فضيحة، وحين تملك أن تستقصي ثم تكتفي بما يصلح. ومن هنا جاء ذلك الأدب النبوي الفريد: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، فتعلبنا أن ليست كل معرفة مأذوناً بإظهارها، وليست كل حقيقة تحتاج إلى أن تحول إلى سكين، وأن الإنسان كلما ازداد فهماً احتاج أن يزداد رحمة في استعمال ما يفهم.

ثم التفتت السورة إلى أخفى نقطة في الإنسان: ميل القلب. وفي كلمة ﴿صَعَتُ﴾ اختصرت لنا سيرة كثير من الانحرافات؛ فالقلب لا يعلن خروجه فجأة، بل يميل، ثم يبرر الميل، ثم يعتاده، ثم يدافع عنه. وهنا جاءت التوبة قبل أن يصير الميل هوية، وكأن الله يعلن أن النجاة الكبرى كثيراً ما تبدأ من لحظة صغيرة: أن تشعر باختلال الاتجاه مبكراً، وأن تعود دون مكابرة، وأن يكون الحق أحب إليك من الاستمرار في الدفاع عن نفسك. ومن أعظم ما يمكن أن يملكه الإنسان أن يعرف كيف يعود؛ لأن الذي لا يخطئ ليس

من جنس البشر، أما الذي يصر على الخطأ حتى يحفظ صورته فقد جعل كبرياءه حارساً على سقوطه.

ثم تكرر في السورة معنى الولاية حتى صار كأنه قلبها الخفي: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَا كُفْرًا﴾، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾؛ وحين يصل المؤمن إلى هذه الحقيقة يتغير معنى القوة عنده، لأنه لا يعود محتاجاً أن تكون كل القلوب معه، ولا أن يربح كل خصومة، ولا أن يحتفظ بكل علاقة بأي ثمن. من كان الله مولاه يستطيع أن يحب بلا ذل، وأن يعتذر بلا انكسار مرضي، وأن يقول «لا» دون وحشية، وأن يخسر إعجاباً ولا يخسر ضميره، وأن يقف منفرداً ولا يشعر أنه متروك، لأن الوحدة في حساب الناس لا تعني الوحدة في حساب السماء.

ثم حملتنا السورة من مسؤولية القلب إلى مسؤولية البيت: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، فأعادت تعريف الحب مرة أخرى؛ فالحب ليس أن تجعل حياة أهلك أكثر راحة فقط، بل أن تجعل طريقهم إلى الله أكثر وضوحاً، وليس أن تحرس أجسادهم من المرض وحده، بل قلوبهم من الاحتراق. وهنا ينكشف تقصير حضاري كامل، فنحن بنينا للأبناء غرفاً، ونوفر لهم تعليماً، ونراقب غذاءهم ومستقبلهم، ثم قد نترك قلوبهم نهياً لكل ما يدخل إليه، كأن الإنسان يستطيع أن يخجو بجسد معافى وروح مهدمة. لقد ذكرتنا السورة أن الأسرة في المنظور القرآني ليست مجرد وحدة اجتماعية، بل أمانة أخروية.

وحين رفعت أمامنا صورة النار لم تجعلها نهاية الطريق، بل وضعت التوبة إلى جوارها؛ لأن الله لا يعرفك بالخطر ليستمتع بخوفك، وإنما لينحك فرصة النجاة. وهكذا تحولت السورة من ﴿نَارًا﴾ إلى ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ثم إلى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى﴾، وكأنها رسمت بألفاظ قليلة مسار الروح كلها: خطر، ووعي، ورجوع، ومغفرة، ثم ضياء. وما أبلغ أن يكون النور في النهاية «يسعى»، كأنه العمل القديم وقد عاد في هيئة ضوء، وكأن الركعات والدموع ومجاهدة النفس والصدق في السر لم تذهب، بل كانت تتجمع في عالم لا نراه حتى يأتي اليوم الذي يحتاج فيه الإنسان إلى ما صنعه أكثر من أي وقت مضى.

ومع ذلك لم تتركنا السورة نغتر حتى بالنور، بل جعلت أهل النور يقولون: ﴿رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورُنَا﴾، لتعلمنا أن الطريق إلى الله لا توجد فيه لحظة يستغني فيها العبد عن ربه. بداية

الطريق بالله، ووسطه بالله، ونهايته بالله؛ ومن ظن أن ما عنده من علم أو عبادة أو سابق فضل صار ضمناً، فقد نسي أن تمام التور هبة. وهذا هو سر التواضع الذي يصنعه الإيمان الصحيح؛ لا لأنه يزدري العمل، بل لأنه يعرف أن العمل نفسه توفيق، وأن القبول فضل، وأن حسن الخاتمة رحمة.

ثم جاءت الأمثلة الأخيرة في السورة لتكسر آخر ما يمكن أن يختبئ الإنسان وراءه. امرأتا نوح ولوط تقولان: لا نتكئ على قربك من الصالحين، وامرأة فرعون تقول: لا تحتج بفساد البيئة، ومريم تقول: لا تجعل ضغط العالم عذراً لفقدان الطهر والتصديق والقنوت. وهكذا أغلقت السورة منافذ الأعذار واحداً واحداً؛ فلا الأسرة ضمان، ولا المجتمع قدر مطلق، ولا الظرف يستطيع وحده أن يكتب مصيرك. تستطيع أن تسكن بيت نبي وقلبك بعيد، وتستطيع أن تسكن قصر طاغية وقلبك يقول: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

ولعل أعمق صورة في السورة كلها هي هذا الانتقال من «البيت» إلى «البيت». في أولها بيت النبوة، بأسراره ومشاعره وحساسياته البشرية، وفي آخرها امرأة فرعون تطلب بيتاً آخر عند الله. وبين البيتين رحلة كاملة لتحرير الإنسان من الوهم بأن مكانه الخارجي هو الذي يحدد منزلته الحقيقية. قد يكون البيت الأول فائراً وتكون الروح غريبة فيه، وقد يكون البيت صغيراً وتكون فيه السكينة، وقد يكون الإنسان في قصر فرعون وجسده محاصراً بينما قلبه قد سبقه إلى الجنة. إن البيت الحقيقي، في النهاية، ليس ما تغلق أبوابه بالمفاتيح، بل الموضع الذي نأوي إليه عند الله.

ومن هنا يمكن أن نقول إن سورة التحريم ليست فقط سورة في الأسرة، ولا فقط سورة في التوبة، ولا فقط سورة في النساء اللاتي ضرب الله بهن الأمثال، وإنما هي سورة في «سيادة الله على الداخل الإنساني». من الذي يقرر للجب حدوده؟ الله. من يعلم السر؟ الله. من يرى ميل القلب؟ الله. من يفتح باب التوبة؟ الله. من يتولى نبيه وعباده؟ الله. من يأمرنا أن نقي أهلنا؟ الله. من يحذر من النار؟ الله. من يكفر السيئات؟ الله. من يتم النور؟ الله. من لا يغني أحد أمام حكمه عن أحد؟ الله. ومن يبني للعبد بيتاً في الجنة؟ الله. فإذا خرج الإنسان من السورة وقد أعاد هذه السيادة إلى موضعها في قلبه، فقد أخذ منها أعظم هداياتها.

إن أكثر ما يفسد الإنسان ليس دائماً أن ينكر الله بلسانه، بل أن يترك في داخله عروشاً صغيرة تنازع أمره: عرشاً لرضا الناس، وعرشاً للسمعة، وعرشاً للشهوة، وعرشاً للكبر، وعرشاً للخوف من الفقد، وعرشاً للانتماء، وعرشاً للبيئة التي يقول إنها أقوى منه. وسورة التحريم تمر على هذه العروش واحداً واحداً وتكسرهما بلطف وحزم، حتى لا يبقى في أعماق موضع من القلب إلا معنى واحد: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَا كُفْرٍ﴾.

وهذه الولاية لا تجعل المؤمن هارباً من الناس، بل أقدر على محبتهم محبةً صحيحة؛ لأنه حين لا يعبد رضاهم لا يحملهم ما لا يستطيعون، ولا يطالبهم أن يكونوا مصدر قيمته، ولا ينهار إذا تغيروا. يصبح أكثر وفاء للأسرار، وأكثر عدلاً في العتاب، وأكثر استعداداً للتوبة، وأكثر رحمة بأهله، وأشد انتباهاً لمصيره. فالعبد حين يتحرر لله لا يصبح أقل إنسانية، بل أكثر إنسانية، لأن علاقاته تنجو من الابتزاز والخوف والتعلق المرضي، ويصبح الحب عطاءً لا عبودية، والقرب مودة لا استحواذاً، والترية رحمة لا سيطرة.

وعندما تغادر السورة آخر آية فيها، يبقى صوت امرأة فرعون كأنه يختصر مسيرة الإنسان كلها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾. إنها دعوة إلى أن يتعلم القلب دائماً أن يقدم «عندك» على كل شيء، فلا يكون السؤال الأول: أين بقي؟ بل: عند من؟ ولا: كم أملك؟ بل: إلى من أنتمي؟ ولا: من معي؟ بل: من مولاي؟ فإذا استقر الجواب الصحيح، هانت قصور الأرض كلها إن كانت بعيدة عنه، وصغر ثقل البيئات كلها إن كان القلب معه.

ثم تأتي مريم في آخر كلمة تقريباً: ﴿وَكَاَنَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، كأن السورة لا تريد أن تتركنا عند لحظة وجدانية جميلة، بل تعيدنا إلى معنى الدوام، فالإيمان ليس انفعالاً عابراً أمام آية، وإنما قنوت، واستقامة، وصبر، ووفاء طويل. وما نكتبه عن القرآن لا تكون له قيمة إن لم يتحول شيء منه في النهاية إلى هيئة في الحياة. سر نحفظه، وعتاب نخففه، وميل نراجع، وذنوب نتوب منه، وبيت نملؤه بالنور، وحداً لا نتجاوزه طلباً لرضا أحد، ودعاء صادق نقوله حين تضيق الأرض: يا رب، ابن لي عندك.

وهكذا تضع سورة التحريم القارئ عند مفترق عظيم: بين أسر المرضاة وحرية الولاية، وبين ظلمة السر حين يخان ونور الأمانة حين تحفظ، وبين قلب يميل ثم يصر وقلب يميل ثم يعود، وبين بيت ينشغل بالدنيا وبيت يتذكر النار، وبين ماضٍ يثقل صاحبه وتوبة تحوّه، وبين ظلمات المصير ونور يسعّى، وبين الاتكال على الآخرين والمسؤولية الفردية، وبين قصر فرعون وبيت عند الله.

وفي نهاية هذه الرحلة لا نحتاج إلى كثير من الكلمات بقدر ما نحتاج إلى سؤال نبيه معنا طويلاً: ماذا بقي في قلبي ينازع الله مقامه؟ فإذا عرف الإنسان الجواب وبدأ في تحرير ذلك الموضوع، فقد بدأت سورة التحريم تتحول من نص يُقرأ إلى نور يعمل في داخله.

اللهم لا تجعل رضا أحد أحب إلينا من رضاك، ولا تجعل في قلوبنا ميلاً إلا رددته إليك، ولا ذنباً إلا فتحت لنا منه باب توبة، ولا بيتاً لنا إلا جعلت فيه من نورك وهداك، ولا أهلاً إلا أعنتنا على أن نكون لهم سبب نجاة، ولا سرّاً أوئمتنا عليه إلا رزقنا وفاء حفظه، وأتمم لنا نورنا، واغفر لنا، وابن لنا عندك بيتاً في الجنة؛ فأنت مولانا، وأنت العليم الخبير، وأنت على كل شيء قدير.